مجموعة قصصيّة

حدث ذات جدار

د.سناء شعلان

أمواج

الطبعة الأولى
٢٠١٦
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

المؤلف ومن هو في حكمه : سناء كامل شعلان
عنوان الكتاب : حدث ذات جدار
بيانات الناشر : أمواج للنشر والتوزيع، عمان – الأردن
عدد صفحات الكتاب : ١٢٨
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠١٣/١٠/٣٧٦٤)
الرقم المعياري الدولي (ISBN) :٩٧٨-٩٩٥٧-٥٤٥-٠٥-٥
الواصفات : / القصص العربية/ / العصر الحديث

• **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**
• **تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**

جميع حقوق الملكية الأدبية محفوظة ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة المؤلفة.

▪ تصميم الغلاف: اسمى جرادات
▪ الإخراج الفني والتنضيد: اسمى جرادات/ عمان ٠٧٨٥٧٤٦٧١٧
البريد الالكتروني ga_asma@yahoo.com

أمـــــواج للطبـــاعة والنشر والتوزيـــع
المملكـــة الأردنيـــة الهاشميـــة ـ عمـــان
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٨٣٦١/ ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٩٦٥١

amwajpub@yahoo.com
www.amwaj-pub.com

مجموعة قصصيّة

حدث ذات جدار

د.سناء شعلان

الطّبعة الأولى
٢٠١٦

إهداء

إلى مَنْ لا تهزمهم الأسوار مهما علتْ وتجبّرتْ.
إلى أمّي القامة السّامقة الطّاهرة التي لا تُهزم ولا تنكسر.

الفِهْرست

رقم القصّة	عنوان القصّة	الصّفحة
	قريباً من الجدار	١١
	إضاءة على ظلام.....	١٣
١.	وبكى الجدار.....	١٥
٢.	المقبرة.....	٢١
٣.	حالة أمومة.....	٢٥
٤.	الصّديق السّري	٢٩
٥.	شمس ومطر على جدار واحد	٣٥
٦.	من أطفأ الشّمعة الأخيرة	٤١
٧.	عندما لا يأتي العيد	٤٧
٨.	وادي الصّراخ.....	٥٥
٩.	الغروب لا يأتي سرّاً	٦١
١٠.	سلالة النّوْر	٦٧
١١.	ما قاله الجدار	٧١
	بعيداً عن الجدار.....	٨١
١٢.	البوصلة والأظافر وأفول المطر	٨٣
١٣.	خُرّافيّة أبو عرب	٩١

من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه،وأن يبكي - ولو سرّاً- احتجاجاً على طغيانه واشمئزازاً من وجوده!

قريباً من الجدار

إضاءة على ظلام

الجدار العازل أو الجدار الفاصل هو عبارة عن حاجز طويل بناه الكيان الصّهيونيّ في الضّفة الغربيّة من فلسطين المحتلّة قرب الخطّ الأخضر؛لمنع دخول الفلسطينيين سكّان الضّفة الغربيّة إلى الكيان الصّهيونيّ أو إلى المستدمرات[1] الصّهيونيّة القريبة من الخط الأخضر.يتشكّل هذا الحاجز من سياجات وطرق دوريّات،أو من أسوار إسمنتيّة بدل السّياجات في المناطق المأهولة بكثافة مثل منطقة المثلّث أو منطقة القدس.

بدأ بناء الجدار في عام ٢٠٠٢ م في ظلّ انتفاضة الأقصى،وفي نهاية عام ٢٠٠٦م بلغ طوله ٤٠٢ كم،ويمرّ في مسار متعرّج يحيط بمعظم أراضي الضّفة الغربيّة،وفي أماكن معينة،مثل مدينة قلقيلية،يشكّل معازل،أيّ مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريباً بالجدار من جهاتها جميعها .

(١)- المستعمرة تحمل معنى الإعمار،أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوة القهر والظّلم،ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء.إذن فهي مستدمرة لا مستعمرة.

وبينما تعارض السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة والمنظّمات الفلسطينيّة بناء الجدار،وتُطلق عليه اسم "جدار الفصل العنصريّ"، أو "جدار الضّم والتّوسّع العنصريّ"، تعبيراً عمّا تراه فيه من محاولة صهيونيّة لإعاقة حياة السّكان الفلسطينيين أو ضمّ أراضٍ من الضّفة الغربية إلى الكيان الصّهيونيّ، يصمّم الكيان الصّهيونيّ على الاستمرار في التّوسّع في بناء هذا الجدار!!!

وبكى الجدار

وُلدا في يوم واحد،كان يوماً فلسطينيّاً حزيناً يعجّ بالخوف والظّلم والقسوة والحرمان،كان يوماً ماطراً من مُزن السّماء ومن عيون المآقي،وكان العمّ نور محمولاً حينئذٍ على محفّة خشبيّة قديمة ملفوفاً بالعلم الفلسطينيّ،ومشيّعاً بترنيمة الخلود:"الله أكبر".

في طريقه إلى مثواه الأخير في بطن ثرى أمّه فلسطين،كانت الزّغاريد في انتظارهما لا ترحيباً بهما،بل وداعاً لعمّها البطل المغوار.كانا فتى وفتاة،من لحظاتهما الأولى في الحياة حملا الاسم نفسه،ففي خلاف عاجل بين والديهما المتنازعين على وهب اسم شقيقهما الشّهيد لأحد المولودين الجديدين،قرّرا أن يكون اسم كلّ منهما نوراً نزولاً عند اقتراح أمّهما الجدّة التي أرادت أن تحسم الخلاف بحلّ توفيقيّ مرضٍ لابنيها في آن.

لم يفترقا أبداً منذ وُلدا لا في نهارٍ ولا في ليل،يأكلان ويشربان ويستيقظان وينامان في لحظة واحدة كتوأمين متحابّين،كلّ من رآهما ظنّ أنّهما وليدا رحم واحد،قليل من كان يعرف أنّهما أبناء عمّ،وأقلّ منهم من يستطيعون أن يجزموا إن كانا صبيين أم فتاتين أم صبيّ وفتاة؛لأنّ الجدّة اعتادت على الرّغم من احتجاج أميهما على أن تلبسهما ملابس متشابه أكانت بزّات ولاديّة أم أثواب بناتيّة وفق المتيسّر عندها من خوالف ملابس باقي الحفدة،وكان يسعدها أن تراهما يكادان يطيران

فرحاً بملابسهما المتشابه الموروثة الرّثة الفاقدة للونها الأصليّ الزّاهي بفعل التّقادم وطوال الاستهلاك.

كلما صاح أحدهما باسم نور،طارا كلاهما إليه مبتسمين بخبث طفوليّ مشاكس يصمّم على أن يكونا شريكين في كلّ شيء حتى في تلبية صوت الدّاعي،ما كانا ليقبلا بأن يفترقا أبداً مهما كانت الأسباب،ولكنّ المرض وحده هو من فرّق بينهما؛الجدّة أخذت حفيدتها نور إلى الطّبيب في البلدة المجاورة لقريتهم،يومها وعدت حفيدها الباكي نور بأن تعود بحفيدتها نور في ظرف ساعات قليلة بعد أن تعرضها على الطّبيب المختصّ،ولكنّها لم تبرّ بوعدها مكرهة لأنّ مرض نور ألزمها البقاء في مستشفى البلدة لأيام أُخر.

أضرب نور عن الطّعام في انتظار عودة ابنة عمّه نور،ولولا تهديد والده له بعدم عودة نور إن لم يأكل لقضى نحبه جوعاً،ومعدته الصّغيرة وجسده الهزيل أضعف من أن يحتملا الجوع لساعات فضلاً عن أيام.

طال انتظار نور لعودة ابنة عمّه نور،وما عاد أحد قادراً على أن يجيب عن سؤاله الحائر المفجّع:"متى تعود نور إلى البيت؟" فالكلّ كان في انشغال وهمّ بسبب ذلك الجدار الإسمنتيّ الأصمّ الذي زُرع حول قريتهم على غفلة بين ليلة وضحاها بخرسانة جاهزة تثبّت في الأرض تثبيتاً سريعاً في ساعات قليلة،وتغوّل حتى وصل إلى عنان السّماء حاجباً خلفه الشّمس وجدّته ونوراً،بصعوبة استطاعت سنواته السّبع أن تستوعب أنّ جدّته ونوراً مسجونتان خلف الجدار الصّلد العاتي،وأنّه

من الصّعب إن لم يكن من المستحيل أن يُسمح لهما بعبور بوابة الجدار للعودة إلى قريتهما،ولكنّه أبداً لم يسلّم إلى هذا الحكم الجائر الذي يحرمه من أثيرته نور.

وعلا الجدار أكثر وأكثر،ومضت الأيام الطّوال ببطء قاتل،والجدّة ونور مسجونتان خلف الجدار،وهولا ينفكّ يذهب كلّ صباح إلى الجدار يلازمه بالحدّ الذي يُسمح له به الجنود الصّهاينة الذين لا يمكن أن يفهموا معنى أن ينتظر أثيرته نوراً دون فتور أو كلل أو ابتعاد.كثيراً ما كان يصرخ باسم نور؛لعلّها تكون قريبة من الجدار،فتردّ عليه،وعندما كان يعييه صمتها كان يضرب الجدار بحجر،ويولّي هارباً من الجنود الذي يصلونه بتوعداتهم وسبابهم البذيء الخليط من العربية الرّكيكة والعبريّة والكلمات الانفعاليّة المضطربة اللّفظ والمعنى،ثم يهرب بعيداً ليعود من جديد في أقرب وقت ليستأنف نداءه لنور دون مجيب أو رحيم بحاله.

كثيراً ما حمله أبوه بحزم حنون بعيداً عن الجدار،وهو يعضّ على حزنه وانتظاره لأمّه المسجونة خلف الجدار،منكوداً بعجزه وقلّة حيلته،متسلّحاً بجملة واحدة لا تتغيّر،وهي:"ستعود جدّتك ونور في القريب العاجل إنّ شاء الله".فإن ألحّ نور على معرفة وقت عودتهما بالتّحديد انخرط أبوه في بكاء صامت مخنوق يبّلل لحيته،فيكفّ نور عن إلحاحه رحمة منه بأبيه الباكي المحزون.

عرف نور أنّ جدته وابنة عمّه نوراً تعيشان في بيت قريب لهما في البلدة خلف الجدار،وعلم أنّ صحّة نور في تحسّن،ولكنّه لم يستطع أن يفارق أمله في أن يسمع صوتها يردّ على ندائه اليوميّ من خلف الجدار،وفكّر في أن يلفت نظرها بإطلاق طائرته الورقّية إلى أعلى الجدار،لعلّها تطاوله أو تعلوه،فتراها نور،وتعرف أنّه في أقرب نقطة ممكنة منها،وكاد ينجح في خطّته التي كلّفته الكثير من الجهد والخيوط المستعارة من أبناء حيّه،لكن الجنود الصّهاينة صادروا طائرته في أوّل تحليقة لها،وأعدموها هناك في حجرة المراقبة المنتصبة فوق بوابة الجدار،وهكذا فقد أمله الأخير في التّواصل مع أثيرته الصّغيرة نور.

صمّم على أن لا يفارق الجدار دون أن يعود بنوره،واعتكف إلى جانبه لأيام شتويّة باردة،فشلت محاولات الأسرة كلّها في إعادته إلى البيت،وكان يمضي وقته هارباً من ناحية إلى ناحية كي لا تتلقّفه أيدي المصّممين على إعادته إلى بيته ضنّاً به على هذا العذاب الموصول في انتظار ابنة عمّه نور التي لن تعود مهما كابد من عناء البرد والعراء والجوع والضّنك والانتظار المعذّب.

وحده الجدار من كان يعرف أين يختبئ نور من مطارديه من أسرته حتى يقفلوا راجعين خائبين من حيث أتوا دون أن يعودوا به على كره منه،وكم كاد يتمنّى من أعماقه الإسمنتيّة الصّلدة القاسية لو يستطيع أن يملك نطقاً ليوصل سلام نور المشتاق إلى الصّغيرة نور التي تنتظره على

الجهة الأخرى منه رافضة أن تعود مع جدتها إلى بيت الأقارب هرباً من هذه اللّيلة الباردة.

وعندما كان يغلبه ضعفه كان يحاول دون جدوى أن يصدّ بمنكبيه تلك السّحب السّوداء التي تنذر بليلة ماطرة باردة،لكنّ السّحابة تطاولت عليه،واستهانت بمنكبيه العملاقين،وغشيت المكان ضدّ رغبته،وهيمنت على السّماء مزبدة مرعدة،فارتدّ الجدار إلى نفسه مخزيّاً خجلاً من قسوته على قلبي طفلين لا يريدان من الحياة إلاّ أن يلتقيا.

المطر ألجم المكان بالصّمت والعجز،وأغرقه في دفعات ضخمة من شآبيبه،وما انجلى إلاّ في الصّباح وقد غسل كلّ شيء بطهره البلّوريّ البارد،وهناك كان الجدار يبكي بحرقة على طفلين صغيرين كلّ منهما يحمل اسم نور،وهو يغشاهما بظلّه اللّئيم الأسود القابض وكلّ منهما ميّت مسجّى على ناحية مختلفة من جسده الصّلد البارد.

حزن الجدار على الطّفلين المتغالين حزناً وحسرة لأنّه حرم أحدهما من الآخر بجريمة أنّهما فلسطينيين،لم يستطع الجدار أن يمدّ كفيه ليلتقط هذين الجسدين الهزيلين الصّغيرين كي لا ينجسهما بخطيئته تجاههما،وفي لحظة غضب شعواء منه شرع يهتزّ في مكانه،خالعاً كلّ ما عليه من غرف ومكامن ومراقب وجنود وبوّابات،مستسلماً للدّك والتّهاوي تكفيراً عن ذنبه الأسود،ومنداحاً في دموعه الإسمنتيّة وفي أحزانه وندمه على قتل الصّغيرين العاشقين بتجبرٍ وبطش دون رحمة.

المقبرة

لا تستطيع الحاجّة رشديّة أن تُحصي أحزانها الفلسطينيّة؛فأحزان الفلسطينيّ لا تُحصى مادامت لعنة الاحتلال الصّهيونيّ تنهش ماضيه وحاضره ومستقبله،كذلك لا تستطيع أن تُحصي عدد من فقدتْ من أحبّة من أقارب وجيران وأصدقاء بين قتل وسجن ونفي وتعذيب ومرض وتشويه واختطاف،ونكاية بعدوّها الغاشم فهي تصمّم على أن لا تذكر علناً عدد من قدّمت من أبنائها شهداء في قوافل الحرّية،وإن كان قلبها يحصيهم في كلّ لحظة بحرقة وتوجّد وفقد،فهم ثلاثة من زينة الشّباب،كانوا مثل سنابل فرعاء نديّة شهيّة عندما قصفهم العدّو الصّهيونيّ الواحد تلو الآخر دون أن يرأف بشبابهم المُرتجى أو بآمال أمّهم التي أفنت سنين شبابهم عاكفة على يتمهم وفقرهم.

لم يرها أحد في يوم تبكي أحداً من أبنائها،وكانت تصمّم على أن يناديها أهل الحيّ باسم أمّ الشهداء،وتتيه فخراً كلما روت بالماء وبدموع العينين زيتونات قبورهم،وداعبتها بانكسار يتعالى على زفراتها اللاهثة المفطورة على ألم عملاق.

أمّا اليوم فلم تخجل من أن تنتحب،وأن تبذل دموعها سخيّة مدرارة وهي تعانق زيتونات بستانها،وتتشبّث بجذع أكبرها لعلّها تعصمها من أيدي جنود الصّهاينة الذين داهموا القريّة من طلوع الشّمس،وعاثوا تقتيلاً في أشجارها قبل أن يجرّفوا أرضها،ويلقوا بأهلها

جميعاً خارجها حفاة مذعورين بحجة تملّك أراضيهم من أجل بناء الجدار العازل.ولكّنها على الرّغم من جبروت رفضها الأبيّ للرّحيل وجدت نفسها شعثاء غبراء دون غطاء رأسها الأبيض ودون بيتها أو بستانها أو زيتوناتها الوفيرة بل دون قريتها كاملة،ففي ساعات قليلة كانت معظم أراضي القرية مصادرة،وكانت الأراضي الزّراعية جرداء مغتصبة مجرّفة من أشجارها ومن فرحها،فغدت القرية دون سكّانها بعد أن شطر مخطّط الجدار الفاصل القرية إلى نصفين؛نصف صغير يسجن خلفه حشداً عظيماً من أهلها،والآخر يعزل أمامه مقبرة القرية الباقي الوحيد منها بعد أن غدت كلّها خلا المقبرة خلف الجدار العازل ذي الأسلاك الشّائكة والكلاب والبنادق والجنود الصّهاينة.

وحدها الحاجّة رشديّة من بقيت في القرية المختزلة في المقبرة بعد هذا التّقسيم الجائر السّريع الذي نهشها،إذ ظلّت متشبّثة بأرضها،ورفضت الرّحيل لتكون شهيدة جديدة تزفّ إلى المقبرة وإن كانت لا تزال على قيد الحياة! أمضت أياماً قصيرة في مثواها الجديد موزّعة بين أبنائها الأرواح الثّاوين في القبور،وبين شجراتها الزّيتونات المرسلات قتلى على أرض المقبرة بعد أن رحّلتهم إلى جانبها،وفي جنباتها ذلك الحقد المرجل على ذلك الجدار الغاشم الذي بات ينمو بتوحّش أمام عينيها ليحرمها من قريتها وأهلها وتاريخها المديد.

المقبرة هي آخر من تبقّى لها من عالمها المتواري قهراً خلف الجدار،وهي هنا وحيدة لا تملك سوى شجاعتها وإصرارها على البقاء،

وفأسها آخر من رافقها في دربها نحو زيتوناتها،تحدّق في فأسها العتيد المخلوع جانباً،تتفرّس مقبضه الخشبّي الموشّى بمزق جلد يديها،تتأبّطه،وتحكم ربط غطاء رأسها،وتحزّمه بأطراف ثوبها،وتخطو أوّل خطواتها نحو الجدار،خطواتها ثابتة وسريعة تقصد أن تنهال بفأسها على الجدار تحطيماً وتهميشاً، تقترب أكثر من جنود العدّو الذين يهرعون هروباً نحو البعيد من وجه امرأة عجوز تحمل فأسها وغضبها وانتقامها المستعر،وخلفها أجساد تجرّ أكفانها،وتحمل فؤوساً مهدّدة بها وهي تكاد تنقضّ على الجدار،وفي الأفق تلوح المقبرة بقبور مفتوحة قد غادرها الشّهداء إكراماً لدموع الحاجة رشديّة بغية مساعدتها في تحطيم الجدار العازل!

حالة أمومة

لم تكن تعلم بزرع الجدار العازل على أرض قريتها في فلسطين،وهي تقبع في غرفتها الصّغيرة المعزولة في مستشفى إحدى العواصم العربيّة بعد أن حصلت على منحة علاج من إحدى المنظّمات الطّبيّة الخيريّة الدّوليّة بعد طول انتظار لتُعالج من مرض السّرطان الخبيث الذي غزا ثديها الأيسر منذ أن وضعت ابنها الوحيد هاشم،ومنعها من أن ترضعه ولو لمرّة واحدة في حياتها،ثم ألجأه إلى حضن عمّاته الثّلاثة العوانس اللّواتي يشاركنها السّكنى في البيت نفسه،كما يقاسمنها أعباء الحياة القاسيّة في مواجهة عدوّ اعتاد جنوده على مهاجمة بيتهم في دوريات تفتيشيّة مداهمة مكرورة منذ أن اعتقلوا زوجها في مواجهات احتجاجيّة في الشّهر الثّاني من حملها.

وكذلك زوجها لم يعرف شيئاً عن مرضها أو عن سفرها خارج الوطن برفقة والدها من أجل العلاج،فقد أخفت أمر مرضها عن زوجها بناء على رغبة شقيقاته اللّواتي آثرن التّكتّم على هذا الخبر كي لا يزدن من عذابات معتقله،وبوائق أحزانه وآلامه.

كانت تحلم بأن تعود إلى بيتها بعد طول غياب كي تضمّ صغيرها إلى صدرها الذي فقد ثديه الأيسر قرباناً للمرض،فتشمّه،وتغيب معه في احتضان طويل دافئ يخفّف برد حرمانها منه،وما كانت تعلم أنّها ستجد

وطنها قد سُرق من جديد،وأن بيتها قد أصبح محض ذكرى سرابيّة بائدة،وأنّ شقيقات زوجها قد توزّعن على بيوت الأقارب مهجّرات بعد أن صادر العدّو بيتهم وأرضهم،وحوّلها إلى مساحة جرداء تحتضن جداراً إسمنتياً يحوّل الوطن إلى سرادق ضيقة ومصائد فئران وسجن انفراديّ.

تلاشى حلمها الوردّي بأن تحتضن طفلها الصّغير،بعد أن تحوّل إلى كابوس تعيشه بتفاصيله القبيحة الموحشة،وها هي قد أصبحت لاجئة في وطنها،وعلقت مع أبيها في بيت حجرة يسكنه أفراد عشرة من أقاربها،ومن جديد بات عليها أن تحارب سرطان الألم والوحدة والنّبذ.

حاولت دون جدوى أن تعود إلى أسرتها خلف الجدار،واشتدّت محاولاتها إلحاحاً عندما علمت أنّ زوجها قد خرج من المعتقل،واكترى بيتاً صغيراً في أطراف قريته،وجمع شمل أسرته من جديد،وجعل شغله الشّاغل أن يجد طريقة تسمح لزوجته بالعودة إلى بيتها وأسرتها وابنها،ولكنّه كان يخفق المرّة تلو الأخرى في تحقيق مراده،ويعود إلى سريره الحزين مخذولاً محروماً.

وكانت الفرصة الوحيدة للّقاء هي عبر الحصول على تصريح زيارة حصلت عليه بشقّ الأنفس،ولو كان هناك سفر للشّمس لكان أيسر من الحصول عليه،وأخيراً استطاعت أن تضمّ طفلها إلى صدرها تحت عيون الرّقباء غير الوامقين من الجنود الصّهاينة،بدا لها أنّه بالغ الإعياء على الرّغم من تلك الحمرة الوراثيّة التي تعلو وجنتيه،جفل منها

عندما أمطرته بقبلها الهوجاء الملوّعة،ولكّنه استسلم سريعاً إلى رائحة أمومتها الفيّاضة التي تزكم أنفه وهي تدسّه في حضنها بانفعال واضطراب.

عيناه موئل لحزن عتيق،ورائحته تعجّ برائحة عشرات النّساء اللّواتي تناوبن على إرضاعه بعد أن فقد أمّه كي يحافظن على حياته من الهلاك،فأصبحت له عشيرة من الأمهات المرضعات والأخوة بالرّضاعة،ضمّته أكثر إلى صدرها؛لعلّها تكسوه برائحتها الحانية،فتنزع عنه رائحة الأمهات المرضعات الكُثر اللّواتي يشاركنها أمومتها بوحيدها الصّغير.

سريعاً ما انتهى وقت زيارة التّصريح،وتلقّف زوجها ابنهما منها،وضمّه إليه بشجاعة يحاول أن يصطنعها على كره وإصرار،ولكنّه يخفق في إتقانها،طبعتْ قبلة سريعة على جبين ابنها،وهمستْ في أذنه:"سأعود في القريب. صدّقني".ثم غادرت المكان،وهي تخلع قدميها المرة تلو الأخرى من الأرض التي يصعب عليها أن تغادرها،ومزقة من قلبها تضطرب بعجزٍ بين يدي زوجها الذي يسير نحو البعيد مهدّماً ضعيفاً،وكأنّه شاخ بمقدار قرن أو اثنين في أسابيع قليلة.

مضى يومان وهي تحلم بأن تضمّ طفلها إلى صدرها من جديد،وهي أسيرة عينيه الزّائغتين في فراغ مجهول،عندما رفض العدوّ أن يعطيها تصريحاً للزّيارة ولو لدقائق قليلة،هزأت من جبنه المتجبّر على

طفل صغير وأمّ مريضة وحيدة،وقررت أن ترى ابنها أوافق العدوّ على ذلك أم أبى.

في المساء كانت قد عبرت الجدار الفاصل رغم أنوف الجنود الصّهاينة المدجّجين بالسّلاح والخوف والحذر،ولكنّها لم تكن تسعى حيّة على قدميها عندما عبرته،بل كانت جثة هامدة مخرّقة بالرّصاص،وموصومة بجريمة التّخريب،ركلها الضّابط المناوب على الحراسة الليليّة بحذائه العسكريّ الغليظ،وأمر جنوده بأن يبعدوها عن البوّابة،ففعلوا،وكوّموها إلى جانب الجدار وكفّ يدها متخشّبة على ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بأن ترضع ابنها منه ولو لمرّة واحدة في حياتها المهدورة على بوابة الجدار العازل.

الصّديق السّري

لم يحظَ يوماً بأيّ صديقٍ بالمعنى الدّقيق لهذه الكلمة،ولعلّ هذه الشّفة الأرنوبيّة هي السّبب في هذا الأمر؛لم يستطيع أبداً أن يدير حواراً غير مختزلٍ مع أيّ أحد خارج بيته كي يختزل لحظات تحديق العيون الفضوليّة في شفته الأرنوبيّة التي وُلد بها،البعض يقول إنّها عيب خلقيّ مردّه إلى أنّ أمّه قد أنجبته وهي كبيرة في السّن قد تجاوز عمرها الخمسين سنة بعامين،والبعض يرجّح أنّ هذه الشّفة هي من مضاعفات القنابل المسيلة للدّموع التي يغرق العدو الصّهيونيّ الشّوارع والأحياء بها مرّة تلو الأخرى.

لا يعرف سبب علّته ونقصه،ولكن ما يعنيه من كلّ ما سمعه حول شفّته أنّه يستطيع أن يتخلّص منها بعملية تجميليّة سهلة في أيّ عاصمة عربيّة خارج الوطن حيث طبّ التّجميل متقدّم ومتيسّر،ولكن هذا حلم مؤجّل بسبب ذلك الجدار العازل الذي خنق قريته،وعزله وقومه عن الدّنيا وأهلها في جغرافية ضيّقة تناضل لتظلّ على قيد الحياة في أصعب معطيات الاستمرار.

هذه الشّفة جعلته يصادق النّاي الخشبيّ الذي صنعه جدّه له منذ زمن طويل،هذا النّاي هو الصّديق الوحيد الذي يهبه وجهه كاملاً غير

متدارٍ خلف الصّمتً كي يشيح بشفته عن أيّ نظرات فضوليّة قد تطرح عليه الأسئلة المزعجة الخانقة عن سبب هذا التّشوية الخلقيّ المزعج.

لولا هذا الجدار العازل لتمكن من أجراء العمليّة المنشودة منذ أشهر طويلة،ولكنّه مصلوب على عذاب يتلخّص في أنّ من يخرج من بيته خلف الجدار الفاصل قد لا يستطيع العودة إليه،إذن عليه أن يظلّ في انتظار أمله المجنّح المحلّق نحو البعيد،وفي انتظار ذلك يهمس بأحلامه الزّاهية وآماله الملحاحة إلى نايه الحبيب الذي يحوّل دواخل نفسه المكلومة إلى موسيقى عذبة قادرة على أن تتحدّى الجدار،وأن تحلّق بفرح نحو البعيد حيث الانعتاق والحرّية دون أن تطالها يد خانقة،أو يصادرها ظلّ جدار عال لا يُتخطّى.

جزء من الجدار العازل لا يزال غير إسمنتيّ بل هو أسلاك شائكة،وحراسة مشدّدة في انتظار دوره كي يُزرع إسمنتاً وصلباً وحديداً مثل سائر الجدار،ومن أقصى امتداده الشّرقيّ حيث يمتدّ في حقول الحمضيات بعد أن اكتسح الأشجار،ونزعها ليلقي بها بعيداً يكشف عن تلك المستعمرة الصّهيونيّة التي تربض على أرضٍ سلبتها وجوه غريبة شوهاء قادمة من البعيد لينتصر الموت والبغي والظّلم والأسلحة على الجغرافيا والتّاريخ في معادلة سياسيّة استبداديّة ساخرة.

في البداية اعتاد على أن يتلصّص على المستدمرة من باب الشّهوة في كسر إسار الجدار المضروب حول كلّ شيء،فيما بعد غلبه الاستسلام لتلك اللّعبة الفضوليّة الجهنّميّة المسمّاة مقارنة،أركان اللّعبة متوفّرة كاملة

في هذه اللّحظة وفي اللّحظات جميعها،فعالمه المقهور المظلوم في مواجهة ذلك العالم المرفّة الجميل هناك في المستدمرة،هنا تحاصره وجوه الجنود والكلاب والسّلاح والموت والأرض المحروقة والمعتقلات والتّعذيب والقتل والخراب واليتم والخوف والفقر والحرمان وحظر التّجول والشّوارع الضّيقة والبيوت القديمة والخدمات المعدومة والغلاء والمعاناة،وهناك في المستدمرة على مسافة يقطعها بربع ساعة من السّير الهوينى يرى الرّخاء والرّفاهيّة والسّلام والأمن والغنى وأسباب السّعادة حاضرة جميعها،قليل من التّفرّس في تلك الوجوه الطّفوليّة الباسمة الرّغيدة المترعة صّحة وعافية،وهي تصهل في تلك السّاحة العشبيّة الخضراء،وتتبارى في صخب وضحك كفيلة بأن تقوده إلى صور بؤسه المقيم حيث الوجوه الكالحة في القرية،إذ لا تأتي السّعادة إليهم إلاّ مهربّة تستعجل المغادرة،ثم تولّي هاربة مع أوّل طلقة رصاص من بندقية صهيونيّة.

كم يحلم بأن يعيش في هذه العالم الجميل،ومن جديد يتساءل لماذا عليه أن يكون أسير عالمه البائس حيث ظلّ الجدار العازل؟! يكرّر السّؤال على نفسه المرّة تلو الأخرى،وتحار الإجابات،وتضلّ طريقها عنه،ويظلّ أسير هذا السّؤال الذي يقدح زناد سخطه وحقده،فيضيفه إلى جملة أسئلته ذات الأقدار المجهولة.

لم يكن يتوقّع أنّ هناك عينين ترقبانه منذ أيام طويلة،وتسعيان إلى أن تقتربا منه إلى أكبر مسافة ممكنة،ولم يتخيّل أن تسلّله لبضع خطوات

إلى داخل المستدمرة سوف تجعل تلكم اليدين الصّغيرتين تقبضان عليه بعطف موزّع بين الحذر والخوف والرّغبة الشّديدة في التّواصل،كاد قلبه يطير خوفاً عندما هبطت اليدان الدّافئتان الصّغيرتان على كتفه،ولكن تلك القبضة الحنونة البعيدة عن القسوة التي ألفها وشعبه من أيادي الصّهاينة جعلته يستسلم لها،ويلزم مربضه دون أن يفكّر في الهرب.

العينان اللّتان كانتا ترقبانه واليدان اللّتان قبضتا عليه كانتا لصبّي في مثل عمره،هو صهيونيّ صغير من ذلك العالم حيث الرّفاهية والسّعادة،إنّه من أبناء الغاشمين الظلّمة الذي سرقوا وطنه،ذلك الغريب الصّغير يعيش في نور الشّمس،أمّا هو فيعيش قسراً في ظلّ الجدار العازل،عليه أن يبتعد عنه،وأن يغادر المكان ليعود إلى أهله وبيته،وأن لا يثق فيه،ولكنّه يرى أمناً غريباً في عينيه الرّماديتين،ورجاء مخلصاً يسأله بذل أن يظلّ معه،وأن لا يهرب بعيداً عنه، في نفسه حربان،وعليه أن ينتصر لواحدة منهما ضدّ الأخرى كي يجد طريق الرّشاد؛إمّا أن يهرب نحو البعيد،أو أن يصدّق قلبه الذي يهمس له بأن يبقى مع هذا الصّبيّ الصّهيونيّ ولو لبعض الوقت،ونفسه تهتف به أن يستسلم لهمس قلبه،وأن يقطع أجمل أوقات اللّعب معه في هذه الحديقة الجميلة التي يرتع فيها ليل نهار.

مضت أسابيع طويلة وهو يسعد بهذا الصّديق السّري الذي وهبه له القدر في لحظة تخلّ عن قسوته،لقد حظي أخيراً بصديق حقيقيّ لا يخجل من أن يحدّق في شفّته الأرنوبيّة الشّوهاء،هما من عالمين

مختلفين،بل من معسكرين متحاربين،ولكن تجمعهما محبّة طفوليّة كلّها دهشة وأُنس وألفة ولا تخضع لحروب الكبار وخصوماتهم،ولا تعترف بجدران أو فواصل،يجلسان لساعات مختبئين في مربضهما بين الأشجار في حديقة المستعمرة،متواريان عن كلّ شيء خلا حديثهما العذب الحنون،يتحدّثان في كلّ شيء بلهجة خليط من العربيّة والعبريّة التي يتوافر كلّ منهما على أقدار كافية منهما،ويتمنيّان لو يستطيعان أن يجريا في المروج دون وجل أو خوف.

في لحظة تخلّ عن ضوابط عالميهما يقرران أن يجريا ويرمحا في الحديقة،يخرجان من مكمنهما،وشطيرة كل منهما في يده،يقضم كل منهما قضمات سريعة من شطيرته،ويمضغ لقمه على عجل،ثم يستسلمان لرغبتهما الأثيرة في الرّكض واللّعب،ويعلو صوت لهاثهما المحمّل بالضّحك والسّعادة،ويطغى ضجيج لهوهما على أصوات الصّبية حولهما،دقائق تمرّ،وينتبه الموجودون إلى الفتى الفلسطينيّ الأسمر الذي يصهل في الحديقة،ويعانق الفتى الصّهيونيّ،فوضى سريعة تطغى على المكان،وخبر الصّبي الفلسطينيّ الموجود في الحديقة يطيّر في المستدمرة كما النّار في الهشيم،بنادق تصوّب نحوهما،عيون شريرة كثيرة تحاصر المكان لاقتناص الصّبي الفلسطينيّ الذي يتجمّد في مكانه مبهوتاً مرعوباً متذكّراً وصايا أمّه بعدم الاقتراب من المستدمرة، عشرات الصّور والوجوه تمرّ سريعاً دون سبب مبرّر في مخيلته البريئة،وأزيز طلقات يعلو في المكان،ثم تستقر الطّلقات جميعها في بطنه،وتتوالى أخر مسرعة إليه لتستقرّ أنّى

شاءت في جسده الصّغير الغضّ،رغبة جارفة في الاستسلام للعدم تجتاحه،فيجثو مهدوماً على الأرض،وعيناه تبحثان عن أرض دون ألم في عيني صديقه الصّهيونيّ الذي يرفع عقيرته برجاء موصول للبنادق كي تكفّ عن صبّ جحيمها على جسد صديقه الفلسطينيّ،وعندما يفشل في إقناع البنادق بأن تكفّ عن إطلاق رصاصها،يلقي بنفسه على جسد صديقه،ليشاركه بتلقّي الرّصاصات الواغلة في جسديهما دون رحمة .

الصّور والوجوه جميعها تغيب عنهما،يسقطان أرضاً في مساحة صغيرة،عينا الصّبي الصّهيونيّ تجولان بوهن في عيني صديقه الفلسطينيّ بحثاً عن ابتسامة مسامحة يهبها له تكفيراً عن هذه الرّصاصات التي اغتصبت فرحه وروحه،وعينا الصّبي الفلسطينيّ تهربان نحو الجدار العازل حيث وجه أمّه مسجوناً خلفه في حزن دائم،يبتسم لوجهها ذي الحزن النّبيل الدّائم وهو يبرق في ذاكرة قلبه،ثم يمضي نحو البعيد حيث لا جدران عازلة أو بنادق غادرة أو صديق صهيونيّ اللّعب منه يعني الموت.

شمس ومطر على جدار واحد

لا شيء في هذا المكان يذكّرها بالشّمس الجميلة المشرقة على الرّغم من ارتفاع حرارة الجوّ إلاّ وجه ذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي اعتادت على أن تراقب قسماته في كلّ صباح وهو يعبر بوابة الجدار العازل حيث يمرّ بالمكان جبريّاً ليعبر إلى الطرّيق السّريع باتجاه عمله،منذ وقعت عيناها عليه في صباح مشمس شعرت بالدّفء الحاني بدل الحرارة اللافحة التي كانت تحرقها في مكانها،وتجعلها تلعن اللّحظة التي جعلتها تترك هنغاريا،وتجري خلف أساطير كاذبة عن أرض الميعاد.

في حقيقة الأمر هي كانت تبحث عن فرصة جديدة للحياة والعمل والدّراسة بعيداً عن صديقها البلجيكيّ الذي خدعها وسرق أموالها مرّة تلو الأخرى،وفي منأى عن زوج أمّها السّكير الذي اعتاد على التّحرّش الجنسيّ بها منذ كانت صغيرة.

جاءت إلى هنا طلباً لفرصة جديدة في الحياة،فلم تجد إلاّ القهر والخوف والعمل المضني ليل نهار،في هنغاريا درست رقص الباليه الذي تحبّه،ويليق بجسدها المرمريّ الذي يخبّ خبّاً كحصان أسطوريّ مجنّح بأردية من سحر ليجيد الرّقص بين السّحاب،ما كانت تتخيّل أبداً أن تقودها الظّروف والخيبات المتتابعة والوحدة والفشل المستمرّ والخوف

من العودة إلى هنغاريا لتتطوّع لتكون مجنّدة في الجيش الصّهيونيّ لتقف على الأبواب،وتعدّ أنفاس الفلسطينيين،وتبادلهم كرهاً بكره دون أن تعرف مسوّغاً مقبولاً لذلك سوى موجبات عملها الكريه،ثم تعود إلى بيتها مساءً محطّمة،وتنزف نفسها تقيؤاً وهي تسبّ وجهها الجميل الذي يرضى بأن يعانق هذا القبح كلّه صباح مساء على تلك البوّابة اللّعينة في الجدار العازل.

أُخضعتْ لدورات تدريبيّة نفسيّة مكثّفة لتقبل بفكرة أنّ هذا الجدار يحمي شعبها الصّهيونيّ الذي تنكر في سحيق أعماقها انتسابها له،وتقنع نفسها ظاهريّاً بأنّها تقف على هذه البوابة لتخدم أمّتها،ولتقمع أولئك المتوحّشين من الفلسطينيين الذين ينخرون في أمن كيانهم الرّابض على هذه الأرض التي تشعر بأعماقها بأنّها غريبة عنها،ولا تنتمي إليها بأيّ شكل من الأشكال،ولكنّها على الرّغم من ذلك لا تزال تشعر بالقرف من نفسها كلّما وقفت ببزّتها العسكريّة تفتّش الأجساد العابرة من بوّابتها،وتشمّ جبراً رائحة الكره والضّغينة والتّحدّي في العيون الفلسطينيّة المتحفّزة لغضب قابل للاندلاع في أيّ لحظة.

كلّ شيء في هذه البوّابة يشعرها بأنّها في جهنم؛فهي بوابّة متوحّشة تفصل بين عالمين مشتعلين،وهي حارسة عليها دون معنى لوجودها هنا بعيداً عن عاصمة الثّلج حيث وُلدت.

وحده ذلك الشّاب الفلسطينيّ هو من يشعرها بدفء مكلّل بالمطر كلّما مرّ بالقرب منها،لا تشمّ فيه رائحة حقد أو كره أو تحفّز

لإيذائها،ترى في عينه غزلاً نادراً لا يجيده إلاّ من يملك روحاً مثل روحه التي تقدر على أن تغلي عاطفة وحنوّاً حتى في ليلة ماطرة!

هو من جعل لوجودها في هذا المكان معنى وغاية، النّهارات التي تبدأ بوجهه تغدو رؤومة قابلة للامتداد في الرّوح والجسد والكلمة،عندما تراه تفكّر دائماً برقصة بالية مشتركة مع جسده الرّجوليّ المعجون بشقائه وعرقه وسمرته المثيرة على الجليد اللامع الزّلق.أحياناً كان يفوتها أن تراه في طابور العابرين في الصّباح لانشغالها بتدقيق أوراق المناوبين الصّباحيين،ولكي تتلافى هذا الحدث غير السّعيد،فقد اعتادت على أن تأتي مبكّرة لتدقّق الأوراق الرّسميّة،فيخلو لها وجه الأسمر تتفرّسه قدر ما شاءت حتى يغادر نحو البعيد مع زملائه من العمّال الفلسطينيين الذين يعبروا كلّ يوم بوّابة الحزن نحو الشّقاء في الأراضي المستدمرة كي يلاحقوا لقمة العيش المغموسة بالخوف والحزن والذّل وساعات لا تعدّ ولا تُحصى من الانتظار على البوّابات والمعابر ونقاط التّفتيش والتّحميل والتّفريغ.

أصبحت الحياة أجمل بوجوده،مرّة تعمّدت أن تفتّشه بيديها العاشقتين،فاحترقت برعشة الاشتهاء،ولوعة الشّوق وهي تتلمّس هضاب جسده وسهوله بضراعة من يتبرّك بعباءة وليّ صالح،مسّدت أكثر من مرّة على عضلات صدره،وكادت تلمس خفقات قلبه الذي فضح صمته،وقال لها قهر تكتّمه:"أحبّك".

فيما بعد عاهدت نفسها على عدم الاقتراب منه أكثر كي لا تحترق بجمر جسده،واكتفت بأن تكون في أقرب نقاطها منه في كلّ صباح،تيسّر له العبور مع من معه من العمال بأقل قدر من الانتظار والإزعاج،وتسعد بادخار نظراته في عميق وجدانها حيث تسكن الإيقاعات الموسيقيّة ممزوجة برقص الباليه.

كانت ترجوه بصمت أن يهمس لها بأيّ كلمة،وما كانت تحلم بأن يهديها ديواناً شعرياً لشاعر فلسطينيّ قال لها إنّ اسمه محمود درويش،وإنّه يحبّه جدّاً،فكان لزاماً عليها من تلك اللّحظة أن تحبّه إكراماً لحبيبها الأسمر الجميل.تفرّست في الدّيوان على غير عجل،وكأنّها تريد أن تنعّم أناملها بمس كلّ صفحة قد يكون قد مسّها من قبلها،حدّقت طويلاً في الصّفحة الأولى حيث كتب لها بخط عربيّ بديع الانحناءات:"عندما أراك يسقط المطر في سماء روحي: مصلح الوادي".

قرأت العبارة عشرات المرّات حتى حفظت انحناءات كلّ حرف فيها،وراق لها أن تجمع مطر قلبها مع شمس وجهه كلّما التقيا في بوّابة هذا الجدار المقيت الذي باتت تتقزّز من ظلّه الرّابض على صدر الرّجل الذي تخشى أن تعترف لنفسها بأنّها تحبّه.

أشهر طويلة مرّت وهي تراقصه رقصة العشق في هذه البوّابة،وتحلم دون توقّف بنهار مشمس يتخلّله مطر مداهم يدكّ هذا الجدار ببوّاباته جميعها،ويسمح لها بأن تقترب منه لتقول له دون خوف أو وجل أو ريبة:"أحبّك".

هذا الصّباح استيقظت من نومها وهي تتمتم بجملة:"أحبّك".طوال الطّريق وهي في دربها إلى البوّابة في سيّارة الجيش كانت تحلم بأصابعه تداعب نمشها الورديّ،وبشفتيه الغليظتين ترسمان قبلة على جبينها الصّغير النّاصع البهاء،المطر كان يقرع زجاج السّيارة،وأشعة الشّمس تتحدّى قطرات المطر الوليدة،وتشاغب خصلات شعرها الأحمر المجعّد،فتبتسم ابتسامة أنثويّة تعجز عن كتمانها في أعماقها،وتشرئب نحو البعيد حيث البوّابة تقترب منها،وموعد لقائها الصّباحيّ بمن تحبّ يقترب كذلك.

عندما وصلت إلى البوّابة كان المكان يضطرب بالجنود والصّخب والكلمات المتطايرة التي تشير إلى مشكلة ما،ومن خلف جموع الجنود كان تبزغ أجساد مسجّاة على الأرض وكلاب بوليسيّة شرسة تنهشها ،زملاؤها الجنود قالوا لها إنّهم عمّال فلسطينيون مخرّبون،اقتربت منهم بوجل؛فهي تدرك معنى كلمة مخرّب المزعومة التي يتّخذها جنودهم ذريعة لممارسة موهبتهم في القتل والتّنكيل بالبشر،وجه ذلك الأسمر المدرّج بالدّم والزّبد وابتسامة هازئة بكلّ جبروت أوّل ما صفع وجهها،وأشعرها بالصّقيع اللافح المغروز في العظام والقلب،تكوّمت إلى جانبه دون أن تجرؤ على أن تدفن رأسه في حضنها ولو لمرّة واحدة في حياتها،كانت مغمورة بظلّ الجدار العازل حيث العفونة والظّلام والكآبة والظّلم،وكانت العودة إلى هنغاريا دون رجعة إلى هذا المكان هي الفكرة الوحيدة التي تملك عليها ذاتها،وتلحّ عليها قبل أن يقتلها الجدار كما قتل الرّجل الذي عشقته.

مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة ؟!

لا تجيد التّنظير السّياسيّ أو الفلسفيّ مثل معظم المناضلين الفلسطينيين،كذلك لا تستطيع أن تقرأ أو أن تكتبُ؛فهي من مواليد القرن الماضي،ولم تتح لها فرصة للذّهاب إلى الكتّاب،فقد كان ذلك محرّماً على الفتيات في ذلك الوقت وفق أعراف اجتماعيّة صارمة،وكان قصراً على الذّكور،ومن ثم أخذتها الحياة الزّوجيّة المبكّرة والأمومة المتكرّرة لتسع مرّات متتابعة من متابعة البرامج الثقافيّة أو تعلّم القراءة والكتابة أو التفرّغ للجلسات الحواريّة السّياسيّة،ولكنّها تعرف أنّ البطولة والوطنيّة والمقاومة الفلسطينيّة للعدو الصّهيونيّ تكون على قدر الظّروف والمعطيات والملكات.

وملكتها العظمى تتمثّل في أمومتها التي تتّسع لسكان كوكب الأرض جميعهم،وتمتدّ لتحتضن الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات الصّهيونيّة؛بدأت حكايتها مع أمومتها العملاقة عندما زُجّ بابنها البكر عبد المجيد في المعتقل الصّهيوني،وحُكم عليه بالسّجن مدى الحياة،ثم لحقه أخواه الأصغران ليغدو ثلاثتهم أسرى المعتقل المتوحّش،كانت تمضي أسبوعها تلاحق الجهات المسؤولة والصّليب الأحمر كي تحصل على تصريح زيارة لأحدهم أو لجميعهم،وقليلاً ما كانت تحصل عليه

دون تكرار رفض ومماطلة وتنكيد ومراوغة لأوهى الأسباب،ومن ثم بات من المستحيل أن تحصل على تصريح لزيارة ابنها البكر عبد المجيد الذي غُلّظت العقوبات عليه،ومُدّد حبسه الانفراديّ إلى الأبد،من ثم حرُمت من زيارة ابنيها الأصغرين بسبب الجدار الفاصل الذي قطع الأرض بينها وبين معتقليهما،فتباعدت الأرض بينهم على الرّغم من تقاربها،وأصبح العالم في فلسطين لا يُفهم إلاّ بمنطق باطن الجدار وظاهره.

ومن هذا المنطق الظّالم وجدت نفسها أمّاً يفصلها جدار إسمنتيّ أصمّ عن أولادها المعتقلين،كما يفصل الجدار نفسه آلافاً من الأمهات الفلسطينيات عن أبنائهنّ وبناتهنّ في المعتقلات.فقرّرت أن تكون إلى جانب المعتقلين الفلسطينيين ضدّ الجدار،كما صمّمت على أن تمارس أمومتها معهم،بدأت الفكرة بتجربة،ثم أصبحت التّجربة واقعها المعيش،في معتقل البلدة كان هناك ١٤٦ معتقلاً ومعتقلة،وقد بات شغلها الشّاغل أن تزورهم الواحد منهم تلو الآخر،وأن تتعرّف عليهم،وأن تكون أمّاً لهم أجمعين بدل أمّهاتهم المحرومات من الزّيارة اللّواتي لا يستطعن الوصول إليهم.

تعاطف الصّليب الأحمر مع رغبتها،وجنّد إمكاناته المحدودة من الوساطات والدّعم من أجل أن يساعدها على زيارة الأسير تلو الآخر،وكانت أمومتها عونها في هذا الأمر،كانت الشّمعة الوحيدة في حياة الكثير من المعتقلين، تحفظهم فرداً فرداً،وتسأل عن أحوالهم،وتعرف

ظروفهم،وتتـــابع قضاياهم،وتصـــغي إلى شـــكواهم دون تـــذمّر أو ملل،وتحاول ما استطاعت أن تخفّف عنهم آلامهم وقهرهم حتـى باتـت الأم الحقيقيـة لكـلّ منهم،وغـدت زيارتهـا بلسـم لكـلّ معتقل،فغـدت شمعتهم الأخيرة والوحيدة في ظلام معتقلهم القـابض علـى أرواحهـم الثّائرة،ونالت باستحقاق لقب "أم الأسرى".

كانت تتشفّع عند الله بهذه الأمومة الغامرة،وهذا العطاء الموصول كي يفكّ أسر أبنائها،وييسّر لها أمـر الحـج إلى بيـت الله الحـرام قبـل أن يستردّ الله روحها الأمانة،ويختارها إلى جانبه حيث الرّحمة والعدل،وعلى غير متوقّع خرج ابنها الكبير من المعتقل،وهو المحكـوم مؤبـداً في صـفقة تبادل للأسرى مع الصّهاينة،ونُفي إلى بيروت تنفيذاً لبنود الصّفقة حيث سيستقرّ هناك،وكان أوّل ما عمله هو أن سـعى للحصـول علـى فرصـة لكي تحـجّ والدتـه ووالـده إلى البيـت الحرام،وتكّللـت مسـاعيه الحثيثـة بالنّجاح،وكانت تأشيرة السّفر وحجـز مكـانين في حافلـة الحـجّ ونقـود كثيرة أوّل ما أرسل إليها من منفاه الجديد.

فرحت "أم الأسرى" بتحقّق حلمهـا بـالحجّ لاسـيما مـع اقـتراب موعد خروج ابنيها الآخرين من المعتقل،وأعدّت العـدّة كـي تتوّجـه إلى بيت الله الحـرام برفقـة زوجها،وطوّفـت لأسـابيع علـى المعـتقلين كـي تـودّعهم قبـل سـفرها،فحمّلوها بمحبـتهم وبـدعواتهم لهـا وبرسـائلهم الشّفويّة لأمهاتهم وأسرهم إن تسنّى لها في خروجها من أسر الجـدار أن تقابلهم أو أن تزورهم.

عندما خرجت من بوابة الجدار نحو الحرّية متّجهة إلى بيت الله الحرام،تذكّرت أمراً واحداً،وهو الرّسائل الشّفويّة التي حمّلها المعتقلون لها،كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي تخرج فيها منذ سنوات من أرض عزلة الجدار،ولعلّها تكون المرّة الأخيرة أيضاً قبل أن ترحل عن هذه الحياة.

حدّقت طويلاً في السّماء الممتدّة في الأفق دون قيود،وتراءت أمامها قلوب أمهات الأسرى الفلسطينيين التي تتوق إلى أخبار عن أبنائهنّ المعتقلين،وضجّت في خاطرها نصوص آلاف الرّسائل الشّفويّة موشّاة بأصوات أصحابها وبمشاعرهم وباختلاج جوارهم،وقرّرت في لحظة تضحية أن لا تذهب إلى الحجّ،وأن تستثمر أيام حرّيتها خارج الجدار في تبليغ الرّسائل إلى أصحابها.

لم يكن من الصّعب عليها أن تزجر نفسها الطّامحة إلى تحقيق حلمها في زيارة بيت الله الحرام،منحازة بذلك إلى صوت الرّحمة والأمومة في داخلها.ودّعت زوجها على تخوم الجدار وهو يقصد الحجّ وحده دونها،وهو يلوّح لها بثوبه الأبيض،ويدعو لها وله بالمغفرة.

قضت "أم الأسرى" أياماً موصولة بالتّطواف في أرض وطنها،دقّت الأبواب وفق العناوين التي تحفظها عن ظهر قلب،حتى أوصلت الرّسائل إلى أصحابها،فما تركت أمّاً إلاّ وواستها،ولا زوجة إلاّ وأسرّت لها بكلام زوجها،ولا طفلاً إلاّ وحملت له قبلات أبيه،وحفظت قسماته بعناية واقتدار كي ترسمها في مخيال والده الذي لم يره منذ زمن.

لقد قرّت نفساً بعد أن أدّت الرّسائل الأمانات إلى أهلها،وها قد أزف موعد العودة إلى منزلها،حزمت تعبها واشتياقها إلى أبنائها الأسرى،ووقفت في طابور انتظار طويل كي تعبر بوّابة الدّخول عبر الجدار العازل،وطال انتظارها كما طال بالموجودين جميعهم إمعاناً في إذلالهم والتّضييق عليهم،فانتبذت مكاناً قريباً لتريح شيخوختها الثّمانينيّة المثقلة بهموم المعتقل والمعتقلين،وطال انتباذ جسدها مكاناً قصيّاً،أمّا روحها فكانت طائراً أبيض طاهراً يحلّق نحو ربّه في مستقرّة الأخير بعيداً عن شبح الجدار العازل بعد أن حجّت بطريقتها الخاصّة،واستعدّت للقاء ربّها الحنّان المّنان.

عندما لا يأتي العيد

إذا لفظ بصعوبة موزّعة بين مخارج الحروف المشبعة بزفير الهواء،وحشرجات دفعها خارج فمه الذي يزمّه بشدّة ليخرج منه كلمة "هاها" فهو يلفظ دون شكّ اسم ابنه هادي،لم يفكّر يوماً في أن يحاول أن يتحدّى بكمه الذي ناله عطية مجانيّة إجباريّة صهيونيّة من انفجار مدوّ لقنبلة أفقده سمعه وهو رضيع،ولم يجرّب في يوم أن يلفظ كلمة واحدة،واكتفى بالقدر القليل من الإشارات والإيماءات التي أنتجها بفعل حاجاته الضّروريّة مثل الحاجة إلى الأكل أو الشّرب أو الرّاحة أو النّوم أو قضاء الحاجة،فهو لم يتلقَّ أيّ دروس في لغة الصّم والبكم؛لبعد تلك المؤسّسات عن قريته،ولتعذّر الذّهاب إليها بسبب الحواجز الصّهيونيّة التي تطوّقه وقريته من كلّ مكان،ولكن منذ زفّت السّماء إليه فرحة قلبه ابنه هادي بعد زواج طال لعقد كامل من ابنة عمّه تمام،غدت الحياة في عينيه أجمل،وأصبح يملك سبباً مقدّساً كي ينطق اسمه ليل نهار،وإن كان نطقه له يخرج على شكل ترديد ممطوط مشبع بالمدّ لحرف الهاء،ولكن ما يعنيه في هذا الأمر أن يعرف ابنه هادي أنّه يناديه،أو يقصده بكلامه،وهذا حسبه في الحياة كلّها،فما الحياة عنده إلاّ ابنه هادي.

منـذ أن وُلـد هـادي قبـل تسـع سـنوات صـار يملـك سـبباً للحياة،وهدفاً للامتداد،والتحق سرّاً بالكتائب المسلّحة في قريته لمواجهـة الاحتلال الصّهيونيّ،وتلقينه الضّربات الموجعـة الواحـدة تلـو الأخـرى عقابـاً لـه علـى جرائمـه وتنكيلـه،وحثّاً لـه علـى الخـروج مـن وطنـه السّليب،وعليه أن يفعل ذلك،فهذا الـوطن ملـك لابنـه هـادي ولأبنـاء الفلسطينيين لا لأبنائهم الغرباء،ابنه هادي وأبناء الفلسطينيين علـيهم أن يكبروا هنا،وأن يسعدوا هنا،وأن يدفنوا هنا بعد أن يموتوا،أمّا الغرباء فلا مكان لهم في هذه الأرض،ولذلك عليه أن يبـذل النّفـيس والغـالي مـن عمره ونضاله وصحّته كي يهب لابنه هادي مستقبلاً محرّراً وعـادلاً دون شبح شيطانيّ اسمه الاحتلال الصّهيونيّ.

في البداية لم تتحمّس الكتائب المسلحّة الفلسـطينيّة لفكـرة تجنيـد رجل أصمّ شبه عاجز عن التّواصل علـى حـدّ تقـديرهم،ولكن عنـدما وضعوه في اختبارات متعدّدة وجدوه مثالاً للشّجاعة والإصرار والعمل والتّضحية والتّكتم،ولذلك عهـدوا إليـه المـرّة تلـو الأخـرى بالمهمّـات الصّعبة،وكان يقوم بها بكلّ سرّية وإخـلاص وتفـانٍ،ولا يهمـس لبشـر بأمرها خلا ابنه هادي الذي كان يهمس له في أذنه اليمنى وهو نائم بكلّ ما فعله لأجله،ويطبع قبلة مديدة على جبينه النّورانيّ،ويضمّه إلى صدره بكلّ عطف وفخر به،وينام قريراً سعيداً حالماً بفجر قريب.

غداً يكون عيد الأضحى المبارك،وعيده اليـوميّ المتكـرّر هـو أن يرى وجه ابنه هـادي باسمـاً سـعيداً عفيّـاً مشـافىً مـن كـلّ مـرض أو

همّ،وزوجته تحمله كباقة زهر،وتدور به على بيوت القرية،تبارك لهم بالعيد،وتطمئنّ على أحوالهم،وتحمل الحلوى إلى البيوت الأشدّ فقراً من بيوتهم،وتصلهم ببرها وحنانها وتعاطفها مع سائر أحوالهم،هو وزوجته لم يلبسا ملابس عيد جديدة منذ سنوات بسبب ضيق اليدّ لاسيما بعد أن زُرع هذا الجدار العازل الذي ابتلع المزيد من فرص العمل القليلة التي كان الفلسطينيون يحصّلونها بشقّ الأنفس من هنا وهناك أينما تيسّر لهم ذلك،ولكن هادي كان يزهو بالملابس الجديدة في كلّ عيد،ولو كلّفهم ذلك بيع قطعة من أثاث البيت،أو التّنازل عن أكل اللّحم لأيام طويلة،فهذا هو هادي الغالي العزيز،وله أن يسعد،ولو كانت عيناه وعينا زوجته باكيتين حزينتين،فما العيد إن لم يسعد هادي بملابسه الجديدة؟!ويطير فيها في شوارع الحي ودروبه الصّغيرة.

في الأعياد السّابقة كان يرافقه مع أمّه إلى السّاحة الكبرى العامّة في القرية للاحتفال بالعيد مع أهل القرية،ولكن منذ أن فصل الجدار بينهم وبين السّاحة والكثير من أراضي قريتهم وبيوتها،بات يكتفي بأن يراقبه وهو يلعب على الأرجوحة الوحيدة الموجودة في الفناء الخلفيّ للبيت،ويقتسم المتعة بها مع أترابه الكُثر من أبناء الجيران؛متعتهم صغيرة،ولكن قلوبهم الصّغيرة الطّاهرة قادرة على صنع السّعادة من أصغر مسبّباتها،ولو كانت أرجوحة خشبيّة صغيرة مثبّتة على أغصان شجرة توت عجوز بحبال مهترئة.

أمّا سعادته فهي تنبع وتصبّ في قسمات وجه هادي وهو يبتسم على قدر ملء روحه وهو يلعب مع أترابه،ويستقبل العيد بغطرسة طاووسيّة وهو يتبختر بملابسه الجديدة الزّاهيّة البهيجة،يراقبه دون ملل من النّافذة الخلفيّة للبيت التي تُطلّ على مرجة الأرجوحة،ولولا وجوب أن يذهب لصلاة العصر جماعة في مسجد القرية لما كان يفارقه لحظة واحدة دون أن يملأ حواسه بحركاته وكلماته التي لا يشبع منها أبداً مهما ارتوى.

في المسجد لم يسمع صوت انفجار كبير،كما سمعه المصلّون جميعهم ؛فهو أصمّ،ولكنّه أوجس خيفة لم يألفها من قبل بشكل مفاجئ تزحف إلى نفسه بدبيب موجع ،وعرف من المصّلين الرّاكضين خارج المسجد باتّجاه الانفجار أنّ مكروهاً ما حلّ بالمكان،كان الجميع يركضون باتجاه الدّوي المزلزل،وكان هو يركض معهم في الاتّجاه نفسه،ولكن باتّجاه وحيده هادي،تمنّى أن يصل إليه بأسرع وقت ممكن ليضمّه إلى صدره،وليشمّ رائحته النّدية دون توقّف،ولكن ما شاهده حال وصوله المكان أعدم أمنياته الثّكلى دون رحمة أو تمهّل،كانت الأرجوحة قتيلة على الأرض تغرق في بحر من الدّماء والأشلاء المقطّعة المختلطة بالدّم المتدفّق منها زلاليّاً رطباً حارّاً،لم يستطع أن يرى وجه هادي بين الوجوه المحوقلة بأسى،والمستنجدة بالسّماء من البطش الصّهيونيّ الذي طاب نفساً بأن يقصف أطفالاً صغاراً وهم يلعبون في صبيحة العيد،فحوّلهم في طرفة عين وسهوة قلب إلى حطام من أشلاء ودماء.

لم يطل بحثه عن هادي بين الأشلاء المتناثرة،فقد وجد رأسه المتفحّم متدحرجاً قرب الأرجوحة القتيلة،ولم يميّزه إلاّ من عينيه الزّرقاوين اللّتين ورثهما من جدّه لأمّه الحاج عبد اللّطيف،فما كان في الحيّ طفل بعينين زرقاوين سواه،حضن رأسه إلى صدره،وزمّها،وذهب بها نحو البعيد؛فهادي يخاف من الدّم والموت والخراب!

في تلك اللّيلة لم يبكِ،ولم ينعَ موت هادي،فهادي لا يموت وإن سُجّي في القبر برأس أو دون رأس،فمثله يجب أن يظلّ حيّاً في نفس والده كي يستمرّ في النّضال حتى يتحرّر وطنه،فرحيل هادي يعني أن لا معنى للنّضال أو الأرض أو الوطن،فما حاجته بغد موعود دون ابتسامة هادي،ولذلك يجب أن يظلّ هادي على قيد الحياة ليكون عنده مبرّر ليستيقظ في كلّ صباح.

اللّيلة عنده مهمّة عسكريّة مُوكلة إليه من قبل جماعته،وهي تتمثّل في تهريب السّلاح والطّعام إلى القرية من خارج الجدار العازل الذي حرمهم حتى من لقمة الطّعام،وحاصرهم حتى في أقواتهم.

لن يؤجّل هذه المهمة،فهناك ألف هادي أو يزيد من أبناء القرية جائعين،ويجب أن يمدّهم بالطّعام،وهادي لا يقبل بأن يجوع الأطفال حداداً على اغتيال رأسه الجميل ذي العينين الزّرقاوين،ولذلك عليه أن يقوم بمهمته بكلّ التزام وإخلاص على الرّغم من احتجاج زملائه في الجماعة،وتصميمهم على أن يعفوه من هذه المهمة في هذه اللّيلة نظراً

للظرّوف القاسية التي يمرّ بها نتيجة اغتيال وحيده الصّغير،ولكنّه يأبى إلاّ أن يأكل الصّغار في هذه اللّيلة بالتّحديد.

يقوم بمهمّته بإتقان،وتدخل الأسلحة والأطعمة إلى القرية بعد رحلة عناء لعبور التّخوم الفاصلة بسبب الجدار العازل،يغادر الرّفاق المكان بأحمالهم العزيزة بغية أن توزّيعها على مستحقّيها في الصّباح،ويعود هو من جديد إلى الجدار متسلّلاً ليصفّي حسابه مع أولئك الأوغاد القتلة الذين اغتالوا ابنه هادي،لا يملك إلاّ قنبلتين ومدفعاً صغيراً محمولاً وجراباً يخصّره، فيه رأس هادي المتفحّم المتخثر الدّم على شعره الملبّد الأكثّ الذي يهبّه قوّة خرافيّة قادرة على أن تجعله يقلع هذا الجدار بأظافره الحاقدة،بسرعة خاطفة ينزع فتيل القنبلتين،ويحوّل المكان إلى جهنم حمراء تصطليّ بأصوات المستنجدين والمحتضرين من الجنود الصّهاينة،تنهال الطلّقات عليه من عشرات الجهات،ويده على زناد مدفعه الرّشاش تهب الموت جزافاً لكلّ من يقترب منه من الجنود،ورأس هادي يترنّح في جرابه طرباً بشجاعة والده.

عندما يأتي الصّباح تكون المجزرة قد استوت على أجساد العشرات من القتلى،وعلى جثّة رجل بملابس فلسطينيّة وجراب يحمل رأساً صغيراً متفحّماً،عشرات المدرّعات الصّهيونيّة المعزّزة تطوّق المكان،وترحل الجثّة محاطة بالجنود والكلاب،فتودّعها زغاريد القرية

الشّامتة بوجع الجنود،ورأس هـادي المـتفحّم يجهـل المصـير الـذي يُقـاد إليه،ولكنّه لا يبالي بذلك طالما أنّه سيواجه مصير والده الحبيب.

في المساء تُوزّع الأطعمة المهرّبة على بيـوت القريـة جميعها،يأكـل الأطفال حتى يشبعوا،ويشبع هادي في قبره عندما يأكل أطفال قريته،وفي كلّ مساء يأتي الطّعام المهرّب على ميعـاده إلى أطفـال القريـة،ولا أحـد يعرف كيف يصل الطّعـام إلى بيـوتهم،ولكنّهم يؤمنـون بحكايـة" الرّجـل الأصمّ حامل الطّعام"،ويعرفون تماماً أنّ شبحاً شجاعاً لا يزال يسـكن في جوار الجدار العازل،ويخوّف الجنود الحرس بجرابـه ذي الـرّأس المـتفّحم المحروق،ويُدخل إلى القرية كلّ ما يشاء مـن مـؤن،ولا أحـد يجـرؤ علـى منعه،وهو يصرخ بملء فيه قائلاً:" ها ها".

وادي الصّراخ

كان اسم المكان منذ سنين طويلة هو"وادي الرّمان"،ولكنّ منذ جاء الجدار العازل،وجرّف أراضي الوادي،وقلع أشجاره،وجعله بائداً خاوياً على عروشه أصبح أرضاً فاصلة بين طرفي البلدة التي أصبحت بلدتين صغيرتين بعد أن كانت بلدة واحدة ذات تاريخ طويل موغل في القدم،فغادرت البلابل الوادي بعد أن خسرت أعشاشها الوارفة في حقول أشجار الرّمان،وحمل الوادي متفجّعاً محسّراً اسم"وادي الصّراخ" حين أصبح ملعباً للأصوات المتناجية عبر الجدار العازل حين حرُمت اللّقاء أو المشاهدة أو الحديث عن قرب.

الفلسطينيون أسموه "وادي الصّراخ" تخليداً لمعاناتهم اليوميّة في الصّراخ عبر أراضيه للحديث عن أيّ أمر في ضوء حرمانهم من لقاء أو تواصل،غدا الصّوت هو ألسنتهم ووجوههم وجلودهم وقلوبهم وأطرافهم وأزمانهم ومسافاتهم وآمالهم،ففي هذا الوادي تُسمع الزّغاريد والتّرانيم والأشواق والأخبار والنّكات والأدعيّة والآيات القرآنيّة بل وبعض المقطوعات الموسيقيّة يتبادلها الفلسطينيون الذين حرمهم الجدار من حقهم الإنسانيّ المتواضع في أن يوسدوا يداً إلى يداً،وقلباً إلى قلب،وعيناً إلى عين،وأن يديروا أيّ حديثٍ إنسانيّ مهما

كان محدوداً وقصيراً،ولذلك غدا الصّراخ عبر مسافة فاصلة طويلة آخر ما يملكون من حقّهم المهدور الفاني.

في الوادي تُسمع أمّاً تحدّث ابنتها التي فصل الجدار بينهما،وعجوزاً أكلتها سنوات الضّنى والمعاناة تدعو لابنها بالعودة إلى بيته،ويعبق الدّمع في عيني من يسمع صوت طفلة صغيرة تطلب من والدها أن يعيدها إلى بيتها بعد أن علقت خارج الجدار في رحلة زيارة لدار عمومتها،وتبكي له متوسلّة أن يأخذها معه،وأن لا يردّها خائبة وحيدة،فيغرق الأب في نشيج موصول متحشرج لا يملك قوة فيه ليصوغ لها وعداً جديداً يصبّرها به،وهو يعلم أنّ تحقيقه بعيد عسير،وفي أقصى الوادي في أقرب نقاطه من السّياج الشّائك يقف صالح ملويّاً متكئاً على عكازين خشبيين ينغرزان في تجويفي إبطيه،وهو يكابد نفسه كي تنتصب واقفة،ولا تسقط إعياءً بعد رحلة كادحة من بيته حتى الوصول إلى الجدار،وهي رحلة تقتضيه زمناً أكثر من ساعتين،وإن كانت تنقضي في عشر دقائق لماشٍ بحزم وقصد،ولكنّه بالكاد يستطيع أن يجرجر نفسه ليصل إلى هنا،ويدسّ نفسه بين جموع الصّارخين،ثم ينتبذ بصعوبة أقصى الوادي ليكون في أقرب نقطة ممكنة للصّراخ المسموع من هدى تلكم الملاك الحمائميّ الأبيض الغارق ليل نهار في نقيع الموت هناك في مستشفى الهلال الأحمر في مخيم الدّهيشة حيث قابلها أوّل مرّة.

هدى تكبره بأحد عشر عاماً،ولكنّ جسدها النّحيل وعينيها الغائرتين في جمجمتها الصّغيرة،ويديها الصّغيرتين بقدر حفنة لوز

أخضر،وابتسامتها الخجولة،وزيّها الأبيض ذا الياقة المرتفعة،تجعلها تبدو أصغر من عمرها بعقد كامل،بل تبدو أحياناً أصغر منه سناً ببضع سنين،ليست جميلة بمقاييس الجمال الباذخة التّسويقيّة التّسليعيّة،ولكنّها آسرة الجمال بمقاييس الجمال الرّوحيّ،حيث طيبتها البيضاء،وقلبها الوردّي،ونفسها المنسرحة دائماً في عون مبذول دائم لكلّ من يطلب عونها لاسيما من المرضى والجرحى الذين تعجّ بهم المستشفى،لذلك يراها صالح حمامة فلسطينيّة بيضاء خُلقت كي تهدل بالتّسبيح للرّب والوطن والإنسان ليل نهار.

كان يتمنّى لو أنّه قابلها هناك في جامعته في القدس القديمة حيث كان شبلاً جسوراً لا يعرف خوفاً أو ضعفاً أو جبناً،كان الأوّل في تخصّصه في الجامعة،والأوّل في برّ والديه العجوزين،والأوّل كذلك في صفوف المتظاهرين والمحتجّين على استبداد الصّهاينة،ولكّن حظّهما غير الموفور جعلهما يلتقيان في أضعف حالاته،وأشدّها عوزاً للشّفقة والرّحمة والعون؛طلقة جرثوميّة واحدة من بندقّية مستدمر[٢] صهيونيّ أصابته بالشّلل الدّائم،وبجشد من أمراضّ الدّم السّرطانيّة الدّائمة،أشهر طويلة قضاها هناك على سريره في المستشفى أعزل من كلّ شيء سوى قلبها الكبير،ورعايتها التي لا تعرف فتوراً أو انقضاء أو رحيلاً.

(٢)- هم مستدمرون لا مستعمرون؛لأنّهم لا يعمّرون بل يهدمون.

لم يكن في حاجة إلى أن يخبره أهله على جرعات من الحياء والحزن والعطف أنّه أصيب بالشّلل الدّائم،ولن يسير أبداً على قدميه؛فهو يعرف هذه الحالة تماماً،ولطالما رآها في صفوف أصدقائه وأترابه وجيرانه من أبناء الشّعب الفلسطينيّ،كان يعرف أنّه سيظلّ عاجزاً إلى الأبد على الرّغم من دعاء أمه الموصول له بالشّفاء والصّحة؛فطلقات العدو الصّهيونيّ لا تنصاع أبداً لأيّ دعاء أو استجداء أو استرحام،ولكنّه كان يعرف أنّ تلكم النّظرات التي تمطره بها الممرضة هدى ليست نظرات شفقة أو رحمة أو واجب كما كان يصرّ عمّه أبو حسين المرافق له في المستشفى ليل نهار على تسميتها،فقلبه الذي لم يكن قد قرع بعد قرعات العشق،يستطيع أن يدرك أنّ هناك ناراً مقدّسة مشتعلة في قلبها كما هي ذات أوار حارق في قلبه الصّغير العشرينيّ الذي لم يذق من السّعادة إلاّ النّزر منها في مخيمه الغارق في العوز والكدّ والاكتظاظ والأحلام التي لا تتحقّق.

عندما أخبر أهله بنيته بالزّواج منها،وقفوا مشدوهين،ثم عاجلوا قلبه بنخزة لئيمة على شكل تشكيك بأن تحبّه هذه الممرّضة العفيّة،وهو العاجز كلّياً حتى عن ضبط بوله فضلاً عن عجزه عن الحركة أو عن أيّ سلوك طبيعيّ فطريّ كمضاجعة جنسيّة مثلاً.ولكنّه أكّد لهم أنّ حبّهما أكبر من التّوصيفات الاجتماعيّة والمعطيات الوضعيّة، باختصار هو يعشقها،وهي تعشقه،ومن يعشق لا يعرف مستحيلاً أو مانعاً،ولذلك سيكون معها إلى الأبد،وهي قرّرت صراحة وبوضوح أن تكون معه

حتى آخر لحظة من حياتها،مضحّية بحقها في الجنس أو الإنجاب انتصاراً لقلبها على مطالب جسدها وحياتها وعالمها.

رثى أهله لسذاجة ثقته في هذا العشق المأمول،وتركوا الأمر للوقت ليداويه بطريقته،وكثيراً ما تكون مداواته مؤلمة وكاوية،ولكّنهم تفاجأوا عندما علموا علم اليقين أنّ الممرضة هدى توافق على هذا الزّواج،وتعدّه الكفيل الأوحد لسعادتها،وباركوا هذا الزّواج بحملة تبرّعات من الأسرة لجمع مهر العروس،فجمعوا بصعوبة ألف دولار كي تكون أوّل عون لهما على الزّواج،وكاد الأمر يتمّ في القريب بعد أن غادر صالح المستشفى،وعاد إلى بيته لاستكمال تجهيز غرفته في بيت أمّه حيث سيكون عشّ الزّوجيّة المنتظر.

وجاء الجدار العازل في ليلة وضحاها ليحبسه في بيته،ويحبس حبيبته في مستشفاها بعد أن قطع الطّريق بينهما،وجعل الأرض أرضين،وصنع بينهما برزخاً من الحرمان والقطيعة،ليكون كلّ منهما حبيساً خلف جهة من الجدار،حاول دون جدوى أن يستقدم حبيبته إليه،أو أن يذهب إليها عبر تصاريح علاج يحصل عليها بمعونة الصّليب الأحمر،ولكنّه ما فتئ يخفق في ذلك المرّة تلو الأخرى،حتى أدرك أنّه حُرم من هدى إلى الأبد.

الطّريقة الوحيدة للتّواصل معها كانت عبر الصّراخ في واديه الحزين،تأتي هي كلّ صباح،ويجرّ نفسه منذ الفجر حتى يصل إليها في

الموعد المضروب كي يقف مهدوماً على عكازه بالقرب من الجدار الشّائك،ويصرخ بأعلى صوته: "هدى" أنا أحبّكِ...كِ...كِ".

فتردّ عليه بجرأة عاشقة لا تعرف خوفاً،ولا لومة لائم في عشقها: "وأنا أحبّك أكثر يا صالح".

فيسألها بلذّة من يطرح سؤاله الشّهي الحلو لأوّل مرّة:" هل تقبلين بالزّواج بي؟"

فتردّ عليه بفرحٍ شقيّ مرح:" نعم،أقبل بالزّواج بكَ".

يسعد صالح بموافقتها،وكأنّها يسمعها لأوّل مرّة في حياته،ويشدّ على الألف دولار التي يدفنها في عميق جيب بنطاله الكتّانيّ القديم،فلا تفارقه ليل نهار على أمل أن ينقدها في القريب المداهم لحبيبته مهراً لها،ويبتسم وهو يحلم بملاكه الأبيض وهي ترتدي ثوب الزّفاف الأبيض،وتجري نحوه دون جدار عازل جبّار لا يرحم قلب عاشقين،ويصرخ بعقيرة مشدودة كوتر قوس متحفّز للانطلاق:" هدى" أنا أحبّكِ...كِ...كِ"

الغروب لا يأتي سرّاً

يقول له صديقه معزّياً ومواسياً له:" لا تجزع يا صديقي،فعند كلّ إنسان أمر يخشاه.أتصدّق أنّ قائدنا في الجّيش يخاف من الدّم،ويفزع منه أشدّ الفزع على الرّغم من أنّه ترأس أكثر من عمليّة إبادة جماعيّة للفلسطينيين؟!"

يردّ عليه بخجلٍ من حالته:" ولكنّني لا أخشى الدّم،بل أستمتع به جداً،وقمّة فخري أن أسفحه من رقاب الفلسطينيين المخرّبين الذين يعيثون فساداً في دولتنا،ولكن يا للعار،أنا أخشى غروب الشّمس،أصاب بهلع عظيم عندما تغيب الشّمس،وتتركني وحيداً في ظلمة هذا الكون،فأتخيّل أنّ كلّ الفضاء حولي يعجّ بالأرواح الشّريرة التي تطاردني بمصائدها النّاريّة،وتحاول أن تنهش جسدي بمعاولها المسنّنة،وتسعى لخطف أرواح أبنائي،لتجرّها إلى الجحيم،هذا أمر رهيب،أكره اللّيل،وأخشى لحظاته التي أقضيها في صراع مع شياطين وهميّة لا يراها أحد سواي، ولذلك تمعن في تعذيبي".

- "حالة غريبة بحق.عليك زيارة طبيب نفسيّ لاستشارته في هذا الشّأن" يقول صديقه معلّقاً على حالته.

- "عرضتُ نفسي على أكثر من طبيب نفسيّ،ولكن دون فائدة،فلا أحد منهم يستطيع أن يساعدني،ولا الشّمس تتشبّث بمكانها في السّماء،ولا الغروب يأتي سرّاً،فلا يوقظ الأرواح الشّيطانيّة التي تتفلّت من عوالمها تقصد أن تطاردني بعذابها المسوم".يجيب الجنديّ الصّهيونيّ بهلع ووجع.
- "ولكن لماذا؟ ما سبب هذه الحالة المرضيّة النّادرة".يسأل صديقه من جديد؟
- "لا أعرف،بحقّ أنا لا أعرف لها سبباً،ولكّنني أتمنى أن يأتي الغروب سرّاً". يهتف الجنديّ بنبرة رجاءٍ وتمنٍّ.

يصمت الصّديق،وتزوغ عيناه بعيداً نحو الأفق،ونحو ذلك اليوم الذي يحاول أن يبتلع ذكراه لحظة بعد لحظة،فيخفق في ذلك،ويأتي الغروب ليخزه بذكراه التي تقضّ مضجعه،وتحوّله إلى ملعون سيزيفيّ لا يعرف عذابه نهاية أو عقابه توقّفاً،يومها كانت الشّمس تكاد تنزلق خلف الجدار العازل لتردي المكان في المزيد من الظّلمة والوحشة،وكان هو الحارس الليليّ المسؤول عن حراسة البّوابة في المساء بعد عناء يوم طويل من المراقبة،وتفتيش العابرين،والتّفنّن في تعذيبهم وتعطيلهم وتوقيفهم وتأخيرهم وإذلالهم،فهو متورط معهم في هذه اللّعبة الظّالمة بقدر تعذيبه لهم؛إذ لا يمكن أن تكون مُعَذِّباً دون أن تكون مُعَذَّباً!

وجاءت تلك المرأة الفلسطينيّة لتعبر البوّابة دخولاً إلى منطقة سُكناها في المدينة المعزولة التي طوّقها الجدار من كلّ مكان كشريط

سحريّ شرير خانق،كانت تجرّ ستّة أطفال،وتحمل في بطنها تلاً لحميّاً يمور بجنين قد أزف موعد خروجه إلى الحياة،كانت مرهقة وبادية التّعب،وجد لدّة خاصة مستفزّة في مشاكستها،وتعطيلها وتلويعها وأبناءها الصّغار قبل أن يسمح لها ولهم بالعبور من البوّابة،وعندما ردّته بشموخ لا يُتوقّع من قسماتها الكسيفة،ومن شحوبها البادي،ومن لهاثها الموصول،قرّر أن يبالغ في تمتّعه بتعذيبها بأن يمنعها من العبور من البوّابة إلى أن يخيّم ظلام اللّيل،ليتشفّى ببؤسها وهي تفترش الأرض،وتتلحّف بالسّماء وبنوها على باب الجدار حتى الصّباح.

كان يتوقّع أن ترضخ لذلّه،أو أن تتضرّع له من أجل العبور،ولكنّها لم تفعل ذلك،بل تفلت في وجهه غير آبهة بجبروته،وجمعت أبناءها على عجل،وأدارت ظهرها لتعود بهم من حيث أتت.اشتعلت نيران الغضب في صدره الصّدئ،وأطلق حشداً من رصاصات نزقة باتّجاهها،فخرّق جسدها وأجساد بنيها في لحظات،تكوّموا جميعاً على الأرض غارقين في بركة دم حار من جداول أجسادهم،وغربت الشّمس تماماً هروباً من هذا المشهد المروّع،وبقيت عينا تلك المرأة تشخصان نحو السّماء،وترفضان أن تُغلقا،وتتوعدان بانتقام،هكذا فهم نظراتها،وصمّم على أنّها تحدّثه وتتوعدّه بالثأر،وعندما عجز الجنود عن إغلاق عينيها انهال عليها بوابل جديد من الرّصاصات حتى بدا بطنها كمصفاة معدنيّة قديمة،ولكّنها على الرّغم من ذلك ظلّت شاخصة العينين تتوعدّه بانتقام قريب.

من يومها بات غروب الشّمس يروّعه؛إذ يكشف له عن عينيها الشّاخصتين،ويتوعّده بالعذاب،وزاد الطّين بلّة حمل زوجته بطفلهما الثّالث،هو يعرف أنّ الموت قريب،وأنّ الانتقام قد أزف،لابدّ أنّ الانتقام سيكون من جنس العمل،ولذلك لا بدّ أنّ الأرواح الشّريرة ستفتك ببنيه وبزوجته الحامل لتحرق قلبه كما أحرق قلب ذلك الأب الفلسطينيّ على زوجته وأولاده.

"ولكن ما ذنب زوجتي وأطفالي الصّغار بما اقترفت يداي؟!"يسأل الأرواح الشّريرة التي تطارده،فترّد عليه بسؤال تنفخه في وجهه بلسان لهيب:"وما ذنب تلك المرأة الفلسطينيّة وأولادها الصّغار لتقتلهم دون رحمة؟!"

- " لا ...لا ... لن يقتل أحد أيّاً كان زوجتي وأولاديّ الصّغار،دعوهم يعيشون،دعوهم يأكلون ويشربون ويكبرون،هم سيموتون في يوم ما،ولكن ليس الآن؟" يرجو الجنديّ الأرواح متضرّعاً.

تجلجل الأرواح بضحكات خشنة ،وتقول بحزم:" بل عليهم أن يموتوا الآن".

- " لا ...لن يكون ذلك أبداً،ابنتي الصّغيرة راحيل تخاف من الموت والقبور،أحبّها أكثر من كلّ البشر،هي أشدّ رقّة من نسمة صيف،لن يقتلها أيّ أحد،ويجب أن تعيش مديداً وأن تسعد كثيراً".يزمجر الجنديّ،ثم يغادر غرفته كالمجنون حاملاً مدفعه الرّشاش،ويهبط

سلّم البيت سريعاً متوجّهاً إلى المطبخ حيث يجد زوجته الحامل وطفليه متحلّقين حول مائدة العشاء،يشيّع دهشتهم بلا مبالاة،ويشرع يخرّقهم برصاصات مدفعه مبتدئ بابنته راحيل التي تخاف الموت والقبور،ويحبّها أكثر من البشر أجمعين،وعينا المرأة الفلسطينيّة القتيلة الشّاخصة العينين تقدحان شرراً،وهو يصرخ بهستيريّة:"هؤلاء زوجتي وطفلي،أنا أحبّهم،لن يقتلهم أحد سواي،هيّا اغربي عن وجهي أيّتها المرأة الملعونة".

سلالة النّوْر

دم سلالته المباركة يتـدفّق في أعماقـه ووجدانـه وشـرايينه،فيدفع حلمه إلى أن يكـبر مـن أجـل أن يسـافر إلى القـاهرة ليسـتكمل علومـه الإسلاميّة في الأزهر الشّريف ليفقّه نفسه،وينفع أمّة المسلمين،منذ أجيال طويلـة رجـال أسـرته الواحـد تلـو الآخـر يحملـون رايـة الشّـريعة الإسلاميّة،ويسمّون الشّيوخ في المدينة، أبوه وجدّه ورجال أسرته جـابوا بقــاع الــوطن الفلســطينيّ،وحملوا لــواء الــدّين والإحســان والخــير والبناء،وهذه البذرة الصّالحة تنمو في أعماقه منذ وُلد،فمنـذ صـغره هـو مفطور على الصّلاة والصّوم والعبادة والبرّ والإحسان،وقد حفظ القرآن الكريم كاملاً منذ طفولتـه،وكثيراً مـا صـلّى بالجماعـة إمامـاً في صـلاة الفجر،برامج حياته كافّـة مكيّفـة وفـق هـدف واحـد،وهو الـذّهاب إلى الأزهر لاستكمال علومه الإسلاميّة،حتى زهر خطيبته اختارها وفق هذا البرنامج،فقـد كانـت صـالحة عابـدة مثلـه،تحفظ الكـثير مـن أجـزاء القرآن،وتتوق مثله إلى دراسة العلوم الإسلاميّة في الأزهر الشّريف.

كان عليه أن يحزم نفسه وكتبه،ويسافر إلى القاهرة بصحبة خطيبته بعد أن يتزوّجها كي ينخرطا في دراسة العلوم الإسلاميّة بعد أن حصّـل لهما قبولاً في الجامعة،ولكنّ الجدار العازل الذي وُلد من رحم شـيطانيّ

وقف حاجزاً أمامهما،ومنعهما من السّفر خارج مدينته القديمة،وحطّم أحلامهما،وغيّر مشاريع حياتهما إلى الأبد.

وعلى الرّغم من ذلك كان من الممكن أن يقبل بواقعه الجديد لو لم يسرق الجدار معظم أصدقائه،ويقتلهم الواحد تلو الآخر على تخومه وبوّاباته،عندها قرّر أن يطعم سدنة الجدار للنّار والموت،هدوءه الغامر أجاد أن يُخفي مخطّطه المزمع،وفي اللّحظة المناسبة كانت الضّربة القاسمة،اختارها أن تكون في ليلة زفافه على المرأة التي اختارها شريكة لحياة الضّنك المريرة،خرج منذ الظّهيرة إلى صلاة الظّهر،وبعد أن أدّاها بأناة وخشوع،خرج إلى مراده،كان يحمل في كيسه الصّغير مسدّساً ومجموعة من القنابل،ويستعيد في ذاكرته تفاصيل خطّته المرسومة للتّسلّل إلى المعهد الدّيني اليهوديّ الدّاخلي،والدّلوف إلى قاعة التّدريس الرّئيسيّة ليوسعهم موتاً،انتقاماً منهم لأصدقائه الذين قتلوهم،ولحلم دراسته الذي أجهضوه في تبرعمه،ولأرضه التي قسمها الجدار دون رحمة أو وجه حق،ولخطيبته التي يعشقها،ولن يستطيع أن يصطحبها معه إلى الأزهر الشّريف كما وعدها مراراً وتكراراً.

كان أمر الدّخول إلى المعهد سهلاً بمساعدة ملامحه الخلاسيّة الشّقراء التي يملكها وراثة عن جدّة أبيه ذات الأصول التّركيّة التي تزوجها جدّه عند دراسته العلوم الإسلاميّة في القاهرة قبل عقود طويلة،وعاد بها إلى مدينته القديمة حيث عاشت وماتت ودُفنت.

بخطوات ناقرة بخفّة على الأرض كرذاذ على ماء وصل إلى القاعة الرئيسيّة،وبسرعة خاطفة شرع ينثر الموت على الجميع بقنابله وبمسدسه،لم يدركه الحرس برصاصهم إلاّ وكان قد أرسل الجميع إلى جحيم الموت،ثم استسلم إلى جنّته الخضراء الموعودة،وحلّق بأجنحة من نور نحو البعيد،وترك جثته لهم ليركلونها بأقدامهم،ويمثّلون بها،ويسجنوها أياماً في حافظة مبرّدة قبل أن يسمحوا بدفنها على عجل في جُنح اللّيل، وكأنّها فعل محظور البوح به.

لم يزفّ إلى عروسه،ولم تُزفّ إليه،وبقيت في ثوبها الأبيض تنتظره طويلاً دون أن تصدّق أنّه لن يبرّ بوعده لها،ولن يتزوّجها،بل ولن يعود إليها أبداً،فليس من عادته أن لا يبرّ بوعد قطعه على نفسه،ولكن يبدو أنّه لن يستطيع أن يبرّ بوعده لأوّل مرّة في حياته،كذلك لن يستطيع أن يعود إليها،لذلك عليها أن تذهب هي إليه،وإن كان هو من سلالة العلماء الأبرار،فهي من سلالة الشّهداء الطّاهرين،فليس هناك في أسرتها بيت لم يقدّم شهيداً؛فهي ابنة شهيد،ووالدها كان ابن شهيد،وجدّها ابن شهيد،بل ابنها المنتظر الذي لم تحظَ به من الرّجل الذي تحبّه لا بدّ أنّه سيحلم بالاستشهاد،فما عليها إلاّ أن تكون شهيدة أيضاً؟

خلعت ثوبها الأبيض إلى ميقات،وعندما حان الوقت المنتظر، استحمّت، وتمشطت ، وتعطّرت، وتزيّنت، وتحزّمت بحزام ناسف،ويممتْ نحو الجدار الفاصل الذي أخذ منها كلّ من تحبّ،أُمرت بالوقوف على عتبة بوّابته،لكنّها لم تفعل،وفي اللّحظة المناسبة،تحولّت إلى

جمرة نار تكوي كلّ من حولها من جنود صهاينة،وتهزأ من الجدار الـذي انهارت أجزاء منه من شظايا حزامها النّاسف،وحمل على أكتافه مكرهـاً طرحة عرسها ملوّحة بالأفق لروحها التي تحجل في دربهـا نحـو السّـماء لتلحق بسلالتها النّورانيّة الطّاهرة.

ما قاله الجدار

(١)

السّجان مسجون أيضاً

كان يبدو العمل له ممتعاً،ومسليّاً،فليس هناك متعة أكثر من أن يقف على بوّابة يراقب منها الخارج والدّاخل،ويمارس عبرها متعته السّاديّة في تعذيب النّاس والتّنكيل بهم،استمتع سنوات طويلة بهذه اللّعبة العمل؛إذ كان يظنّ أنّه السّجان المعذّب للفلسطينيين،ولكن عندما أيقن أنّه لا فرق كبير بين أن يُسجن المرء خلف الجدار أو أمامه أو في بوّابته،انتحر بجرعة إضافيّة من المخدّرات.

(٢)

قبر الرمثاويّ لا يُضام

لا أحد يعرف على وجه الدّقة اسم الشّهيد الرّاقد في هذا القبر،ولكن الجميع يسمّونه قبر الرّمثاويّ،فهم يعرفون أنّ صاحبه جاء من مدينة الرّمثا في شمال الأردن ليجاهد إلى جانب الفلسطينيين،فقضى نحبه في هذه المنطقة،فُدفن في بستان البيت الذي كان يجوزه،ويدافع عن أهله ساعة استشهاده،القبر ظلّ محراب البيت،وعامود فخر أهله،بل

سمّي البيت مع الوقت ببيت الرّمثاويّ،ولقّبت الأسرة نفسها بآل الرّمثاويّ.

عندما غُرز الجدار العازل في خاصرة الشّعب الفلسطينيّ بتر القبر عن البيت،فكان البيت في شرق الجدار،والقبر في غربه،حزن أهل البيت أشدّ الحزن لحرمانهم من القبر،وحزن القبر لنفيه عن عائلته التي جاورها سنين طويلة،ولأنّ الرّمثاويّ لا يُضام،فقد حمل قبره،وانتقل به إلى جوار البيت في النّاحية الأخرى من الجدار،وفي الصّباح كان من جديد في بستان البيت ينتظر أهله ليسقوا زهوره النّابتة عليه،غير آبه برغبة الجدار الملعون!

(٣)

لا قصة حبّ للجدار العازل

جاء هذا الصّحفي الأمريكيّ ذو الأصول اليهوديّة من أقصى ولايات أمريكا بُعداً من أجل أن يقوم بالوظيفة التي أُسندت إليه بحكم شهرته الصّحفيّة وإنجازاته الإعلاميّة الجريئة،كان عليه أن يعاين تجربة الجدار الفاصل؛ليكتب عنه المقالات والقصص الدّاعمة لكلّ من يرى وجوده في هذا المكان عدلاً وضرورة لحماية اليهود الغاصبين في أراضيهم المسلوبة من الفلسطينيين.

الحقيقة أنّه معنيّ بالمبلغ المالي الكبير ذي الأصفار الكثيرة المُتفق عليه مقابل هذا العمل الدّعائي الإعلاميّ العاري من الحقيقة أو

العدل،ومن قال إنّه يبالي بالحقيقة وبالعدل؟! المال كلّ همّه،ورصيده المتنامي في البنك جنّة حياته.

لكن مشكلته الكبرى تكمن في أنّ قلمه يكتب ما يشاء وعلى هواه دون الانصياع له،حاول أن يكتب قصّة حبّ واحدة في ظلّ هذا الجدار،فعجز عن ذلك،فكتب مئة قصة حزن بسبب هذا الجدار،ومزّق أمر الدّفع (الشّيك) ذا الأصفار الكثيرة،وشرع يعيش قصته الأولى مع الحقيقة،فكان في الصّف الأوّل إلى جانب المتظاهرين الفلسطينيين ضدّ هذا الجدار،وتصدّرت صوره وسائل الإعلام العالميّة تحت عنوان:"صحفيّ أمريكيّ يقضي نحبه برصاص قوات الاحتلال الصّهيونيّ".

(٤)

بوّابة واحدة لا تكفي

ليس لهذه البلدة منفذ على الدّنيا سوى هذه البوّابة اللّئيمة في الجدار العازل،إن أُغلقت،وكثيراً ما يحدث ذلك،فأهل البلدة يغدون مجرد سجناء في سجن كبير،جدرانه الجدار العازل،وسقفه السّماء البعيدة.

في كلّ صباح كان يقود شاحنته القديمة بحملها من العمّال الفلسطينيين نحو البوّابة ليواجهوا كبد ساعات من الانتظار والذّل على أمل أن يُسمح لهم بمغادرة البوّابة،لعلّهم يعودون إلى عائلاتهم بأقوات

يومهم التّعس ،وهو يظلّ قعيد الأرض ينتظر أن يسمح له الجنود بمغادرة المكان،ليعود إليها من جديد في اليوم التّالي.

بوّابة واحدة لا تكفي لعبور أولئك العمّال الفلسطينيين كلّهم،حتى عندما قتل مستدمر لعين عشرين عاملاً منهم على البوّابة بسلاحه الرّشّاش،فقد ظلّت البوّابة الوحيدة لا تكفي،لذلك فقد ركب شاحنته،وأسرع بها،وهوى بها على البوّابة،فخلعها،وحطّم جزءاً من الجدار،وسحق بعض الجنود تحت عجلات شاحنته،فوجد الأرض أرحب دون بوّابة أو جدار أو جنود.

(٥)

لا قانون ضدّ الأقدام العائدة

مرض السّكري أكل القدم اليمنى لمؤّذن الجامع في الحارة القديمة،قيل له إنّ من الممكن أن تُصنع له قدمان من اللّدائن الطّبيّة الصّلبة،ولكن هاتفاً في المنام صاح فيه إنّ عليه أن يصنع له قدمين من السّنديانة الكبيرة في أرضه التي تقع الآن خلف الجدار العازل،حاول كثيراً أن يعبر البوّابة،وأن يصل إلى أرضه،ولكن دون جدوى،ففي كلّ مرة كان الجنود يردّونه رداً قبيحاً.

ظلّ يحلم بالقدم الخشبيّة من السّنديانة،وفي لحظة حلم سرقه الموت،قدمه اليتيمة قرّرت أن تحقّق الأمنية،انشلعت من جسده بلين ودعة،وسارت في الزّقاق القديمة التي تحفظها عن ظهر قدم،وعبرت بوّابة

الجدار دون أن يوقفها أيّ جنديّ صهيونيّ،ويمّمت نحو السّنديانة المعمّرة في البستان الجبليّ،وكبّرت:"الله أكبر".

(٦)

الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها

في المعتقل الصّهيونيّ مارسوا ضدّهم أعتى أنواع التّعذيب الجسديّ والنّفسيّ،ولم ينفكوا عنهم إلاّ عندما جعلوا منهم جواسيس لهم،فلا أحد يشكّ في أنّ صبية صغاراً قد يكونون جواسيس على أهلهم وجيرانهم وشعبهم.ولذلك أخرجوهم من المعتقل بهذا الشّفيع المخزي.

نقلوا إلى الجنود الصّهاينة الكثير من الأخبار الصّغيرة حول الثوّار والمتظاهرين من الفلسطينيين،ثم نقلوا إليهم تفاصيل أكبر عمليّة مقاومة سيقوم بها الثّوار الفلسطينيون،وأمدّوهم بالمعلومات ليحاصروا عشرين بطلاً من أبطال الثّورة،ليبيدوهم في أرض العمليّة الفدائيّة قبل أن يقوموا بها،أخذوا مبلغاً كبيراً مقابل هذه الوشاية الدّسمة.

في الوقت المحدّد للعمليّة الفدائيّة كان الفندق الهدف مدجّجاً بالجنود الصّهاينة والآليّات في انتظار إلقاء القبض على الثّوار،ولم يطل بهم الانتظار،فقد جاءتهم استنجادات ملحّة وعاجلة من معسكرهم الذي أُبيد عن بكرة أبيه على أيدي الثّوار الذين خدعوهم عبر المعلومات المضلّلة من خيلهم الصّغيرة الأصيلة التي لا يمكن إلاّ أن تعود إلى أهلها.

(٧)

الموتى لا يرحلون

قال الضّابط الصّهيونيّ بسحنةٍ تمساحيّة ولؤم قنفذ أجرب: " لا أحد سيبقى في هذا المكان،الجميع عليه أن يرحل إلى ما خلف الجدار،الجميع بلا استثناء سيرحلون الآن إلاّ الموتى سكّان القبور".

ضحك العجوز الفلسطينيّ من جهل الضّابط،وتمدّد على أرضه،وقال: "إذن هنا أموت".وأسبل عينيه،وراح في سبات أبديّ.

اقترب الضّابط من العجوز ليحرّكه،لكنّه لم يقدر على ذلك؛ فقد تباعدت الأرض به،وغارت بالعجوز في باطن طبقاتها،وغيّبته عن العيون.

(٨)

طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة

منذ صغره يحلم بأن يكون طائراً بجناحين يحلّقان نحو عنان السّماء،عندما كبر قليلاً بات يحلم بأن يصبح طيّاراً يجوب العالم بطيّارة زجاجيّة نفّاثة،ولكن عندما كسّروا له عظام يديه في المعتقل الصّهيونيّ كي لا يحمل من جديد العلم الفلسطينيّ في المظاهرات ضدّ الجدار العازل،وغدا عاجز اليدين قرّر أن يصبح طائر فينيق في النّار،ولا يحترق،يطير في السّماء،ولا يغادرها،ضمّ يديه العاجزتين بضعف على العلم الفلسطينيّ بعد أن وقف على أعلى مطلّ جبليّ في مدينته،وفرد

كتفيه،وطار،وحلّق دون أن يهبط من جديد على الأرض،وخيّم العلم الفلسطينيّ على الأفق،وغاب الجدار العازل في ظلّه!

(٩)

المجانين ضدّ الجنون

"لا يفهم المجانين إلاّ المجانين مثلهم" .هذه هي جملته الوحيدة التي يفسّر بها قدرته السّحريّة على اجتياز الجدار العازل دون عبور بوّابته.

هو من مجانين القرية العتيقين الذين غدوا من آثارها ومعالمها وأوابدها،لا أحد يعرف متى بدأ جنونه أو لِمَ؟ ولكنّهم جميعاً في قريته يعدّونه من عقلاء المجانين إن جاز التّعبير؛فهو لا ينطق إلاّ حقّاً،ولا يتنبّأ إلاّ بآتٍ.

عندما بُني الجدار العازل أمطره بوابل من السّخرية،وقال مواسياً الجميع:"لا تخافوا،هذا الجدار ليس أكثر من جنون،ولا أحد يخشى مجنوناً،بل إنّ المجانين عينهم ضدّ الجنون"،ومنذ الوقت تغلّب على الجدار بسلطة سحرٍ لا يعرفه أحد،وظلّ حرّاً خارج نطاق سلطة الجدار،يخترقه متى شاء،ويعود إلى القرية عبره متى شاء حاملاً الحلوى والسّمك الطّازج من سواحل عكا ويافا وغزّة.

(١٠)

الموت يساوي بين الأشياء

حياة الإنسان هي الأثمن في هذا العالم،هذا ما تعلّمه من أبويه ومن مدرّسيه في كلية الطّب البشريّ،وما كان ليخمّن أنّ رحلة ميدانيّة واحدة خارج كلّيته سوف تعلّمه ما ينسف به ما تعلّمه كلّه طوال حياته؛كانت الرّحلة هي مرافقة ميدانيّة مع طواقم عسكريّة صهيونيّة في إحدى جولاتها في أراضي الفلسطينيين خلف الجدار العازل،يومها وقع جريح فلسطينيّ في أيدي الجنود بعد مواجهات دامية في باحة أحد المساجد القديمة،كان يتوقّع أن تُقدّم له الإسعافات الأوليّة من قبيل الإنسانيّة والأعراف الدّوليّة لمعاملة الأسرى،ولكنّه فوجئ بأستاذه الجامعيّ في مادة التّشريح يقدّ جزءاً من بطنه بمشرطه وسط صراخ رعديّ من الجريح،في حين تذهب استغاثاته المحزنة أدراج الرّيح دون مجيب،ثم يشرع يعطيهم درساً حيّاً على تشريح إنسان حيّ لا على جثة قديمة متعفّنة،يومها تقيّأ مبادئه جميعها على أرض الموت،وأيقن أنّ الغاية هي الأثمن في هذا الكون! وإخلاصاً لمبدئه الجديد الوليد فقد شرع يقتل كلّ جريح صهيونيّ يقع بين يديه عندما عُيّن طبيباً في المستشفى العسكرّي،ليبيع أعضاءه سرّاً لمن يدفع له المال الوفير،فلا قيمة عنده للحياة،والمال هو الغاية الكبرى في هذه الحياة.هذا ما تعلّمه في رحلته الميدانيّة الوحيدة إلى الجدار العازل.

(١١)

ثورة العصافير خارج التّاريخ

لأنّ البشر يؤرّخون الأعوام بأحداثهم الخاصّة المهمّة،فهم يجهلون تاريخ العصافير الذي يقول:" كانت العصافير تعيش بأمن في غابات وحقول وسهول فلسطين،إلى أن جاء العدوّ الصّهيونيّ،وقطع الأشجار،وجرّف الأراضي،وبنى جداراً عازلاً بين البشر،لا تعرف الطّيور سبباً لوجوده،ولا حقّاً له ليحرمها من أعشاشها وأوطانها.

قيل لها إنّ البشر سوف يردّون حقّها عليها،ولمّا طال بها الانتظار ،شنّت حرباً شعواء على الجدار،وبضربة واحدة من صدورها المجتمعة في جُمع قوّة ضاربة واحدة دكّت الجدار على الغاشمين الصّهاينة،واستردّت أرضها،وبنت أعشاشها من جديد على الأشجار النّامية على رفات الأشجار المقطوعة،وكتبت لها تاريخ نصر تحتفي فيه في كلّ عام.

(١٢)

على الجدار أن يرحل في النّهاية

حدّق الجدار العازل في حياته المعيشة،فوجد نفسه جداراً كريهاً،من باطنه المظلوم،ومن ظاهره الظّالم،فكّر ثم قرّر ثم دبّر،وفي الصّباح استيقظ الفلسطينيون والصّهاينة فلم يجدوا الجدار،فقد رحل دون عودة رافضاً أن يظلّ شريكاً في هذه الجريمة النّكراء.

بعيداً عن الجدار

البوصلة والأظافر وأفول المطر

إن كان اسمك هاشماً،وكنتَ تملك بوصلة نحاسيّة قديمة مربوطة بجيبك بخيط صوف أزرق غليظ،فلا تفارقه،وكنتَ تجزمُ بأنّك ستموت في أشدّ أيام مربعانيّة[٣] الشّتاء برودة،وكنتَ تدسّ يديك في غالب الأحيان في جيبي معطفك أوفي جيبي بنطالك كي لا يرى أحد أصابع يديك العاريتين من الأظافر،فأنتَ بلا شكّ هاشم النتّيفيّ[٤].الكثيرون يعرفونه ويجهلونه في الوقت ذاته؛كان اسماً بلا وجه لسنوات طويلة،فطوال سنين

(٣)- أيام المربعانيّة :هي عند العامّة الأيام الأربعون الأشدّ برودة في فصل الشّتاء.

(٤) - نسبة إلى قرية بيت نتّيف: تقع إلى الشّمال الغربيّ من مدينة الخليل،وتبعد عنها ٢١ كم،وترتفع عن سطح البحر ٤٢٥م،وتقوم على قمّة جبل في المنطقة الغربية من جبال الخليل.تبلغ مساحة أراضيها ٤٤٥٨٧ دونماً. وقُدر عدد سكّانها عام ١٩٢٢ بحوالي (١١١٢) نسمة،وفي عام ١٩٤٥ بحوالي(٢١٥٠) نسمة،وفي عام ١٩٤٨بلغ عددهم (٢٤٩٩)نسمة.قامت المنظّمات الصّهيونيّة المسلّحة بهدم القرية،وتشريد أهلها البالغ عددهم عام ١٩٤٨ (٢٤٩٩) نسمة،وكان ذلك في٢١/ ١٠/ ١٩٤٨.ويبلغ مجموع اللاجئين من هذه القرية في عام ١٩٩٨ حوالي (١٨٩٩٥) نسمة.وقد أقام الصّهاينة على أرضها مستدمرة (نتّيف هلامدة) ١٩٤٩،ومستدمرة(افيعيزر) ١٩٥٨،ومستدمرة (روجيلت) ١٩٥٨،ومستدمرة (نفي مخائيل) ١٩٥٨.وتُعدّ القرية ذات موقع أثريّ يحتوي على خربة أم الرّوس وخربة أم الحاج والنّبي بولس واليرموك والعبد وجداريا والشّيخ غازي والتّبانة وغيرها.